من زوايا الذاكرة

منصور محمد الخريجي

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخريجي، منصور محمد

من زوايا الذاكرة./منصور محمد الخريجي.- الرياض ١٤٢٨هـ

٢٠٤ ص؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٥ - ٤٤٨ - ٥٨ - ٩٧٨

١ - الخريجي، منصور بن محمد - مذكرات

أ. العنوان

ديوي ٨١٨,٠٣ ٦٢٣١ / ١٤٢٨

ردمك: ٥ - ٤٤٨ - ٥٨ - ٩٧٨ رقم الإيداع: ٦٢٣١ / ١٤٢٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٧
ألقت عصاها....	٩
تحررت من هموم الوظيفة ولكن...	١٣
هموم الحياة لا تنتهى مع التقاعد	٢٥
عن الكتابة والكتب	٣٩
الكتابة موهبة	٤٩
أكاديمي أصيل	٥٩
الجذور	٦٧
القريتين والحرب العالمية	٧٣
من نتائج البداية	٧٧
القاهرة: بداية الأنطلاق	٨٧
في بلاد الإنجليز	٩٧
المركزية في العمل	١٠٥
عن وضعي الوظيفي	١٠٩
في ظلال القمة	١١١
جاهزون على مدار الساعة، مع الابتسامة... لمن يستطيع	١١٧

obeikandl.com

مجالس آل سعود ١٢٥
نكرات معذبون في الأرض ١٣١
الحياة والأصدقاء ١٣٥
عمل الشباب والصحافة ١٥٥
حال المسلمين اليوم ١٦٣
كاريكاتير الجريدة الدنماركية ١٦٧
عن الإجازات ١٧٥
حكايات ١٨٧
كبار.. وكبار ٢٠١

*****

obeikandl.com

مقدمة الكتاب

ليس القصد من تسجيل ما بقي في رأسي من ذكريات وأحداث من حياتي الوظيفية في هذا الجزء الثاني من مذكراتي هو أن أكرر نفسي بما قلته في كتابي «**ما لم تقله الوظيفة**». فذلك كتاب سجلت فيه ما مرّ بي من أحداث وما رافق حياتي - خاصة في بداياتها في القريتين في سوريا - من مجريات الأيام والليالي وصروف الدهر، مما لم يكن لي في سيرها دور ألعبه؛ بل كنت مجرد رقم بين أرقام تتقاذفها تقلبات الأيام والليالي حسبما هو مقدَّر لها أن تكون.

أما في هذا الجزء الثاني فسوف يجد القارئ اختلافاً واضحاً في الطرح كما في الموضوع، ففي الجزء الأول كنت في معظم الأحيان مراقباً للأحداث أسجلها دون أن يكون لي دور فاعل في مجرياتها كما هو الحال في المراحل الأولى لكل طفولة وسن مبكرة، وحاولت قدر الإمكان أيضاً في ذلك الجزء الأول أن أكون محايداً أسجل المراحل المبكرة من حياتي دون أن أقحم فلسفتي أو قُلْ نظرتي للحياة عامة.

سيجد القارئ لهذا الكتاب أن النهج قد تغير عما كان عليه سابقاً، وأن مقداراً من التشاؤم ينتابني أحياناً وتتغلب عليَّ

الكآبة في أحيان أخرى! حتى عندما أذكِّرُ نفسي بأسلوبي السابق الذي يميل إلى السخرية، والذي في مواقع كثيرة من الكتاب الأول أضْحَكَ القارئ، فسرعان ما أنسى الأسلوب المرح وأعود إلى الجدية والتجهم، ولا أظن أن أحداً يلومني فأنا ومعي معظم أبناء جيلي والأجيال التي قبلنا أيضاً نعيش في زمن ليس هو أجمل ولا أسهل الأزمنة التي مرت علينا وعلى من عاش قبلنا. والإنسان ما هو إلا ابن زمنه. والله المستعان.

*****

obeikandl.com

ألقت عصاها....

هكذا مرت الأيام والسنون، وجاء الوقت الذي كان فيه على المسافر أن يلقي عصا ترحاله ويستريح. مرت كل تلك السنين الطوال، ما يزيد على ستة وأربعين عاماً من الخدمة في العمل الحكومي، منها حوالي عشر سنوات في حقل الدراسة العليا والتدريس. والباقي في الديوان الملكي - المراسم الملكية.

أسرع هنا فأقول إنني لا أنوي أن أؤلف كتاباً جديداً عن حياتي الوظيفية؛ إذ إنني تطرقت في سيرتي الذاتية بطبيعة الحال إلى طرف من عملي في الديوان الملكي، وليس هناك شيء كثير يمكن أن أضيفه، لأسباب كثيرة لا أجدني ملزما بذكرها، لكن يمكن للقارئ أن يعتبر هذا الكتاب يضيف بعض الجوانب والأحداث، وبعض المواقف لما فاتني أن أذكره في كتابي الأول، وهو بحكم الواقع سيلمس جوانب من حياتي عامة، وتجاربي الحياتية، بما فيها عملي الحكومي، وبحكم الضرورة، ستتداخل أحداث الكتابين: الأول والثاني في مواقع عديدة.

إن العمل مع الملوك والحُكَّام له سحر خاص، وجاذبية لا يقوى كثير من الرجال على مقاومتها، وهم في هذا معذورون؛

فهناك يجدون الشهرة والمجد والعلو، إن هم اتقنوا سبل التعامل الصحيح مع رئيسهم الكبير، ولا يستطيع ذلك كل الرجال. في كل مجال عمل هناك تنافس بين من يعملون في المكان الواحد أو العمل الواحد، وهذا التنافس يشتد ضراوة كلما علت المناصب.

أذكر أنني بعد أن نشرت كتابي الأول، أرسلت منه نسخاً إلى بعض الشخصيات الرسمية الكبيرة، ومنهم صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض. وحدث أنني بعد ذلك ببضعة أيام وجدت بعضاً من أصدقائي يشدون الرحال إلى دبي، في رحلة نهاية أسبوع، فرافقتهم. كنا نسمر في الفندق، وقد شارفت الساعة على الثانية عشرة ليلاً. وفجأة رنَّ جرس الهاتف، وقال عامل التليفون: إن الرياض تطلب الأستاذ منصور الخريجي. أخذت السماعة، وإذا بالمتحدث يسألني أولاً إن كنت أنا منصور الخريجي، ولما أجبت بالإيجاب، قال: كَلِّم الأمير سلمان. طبعاً كانت تلك مفاجأة لم تكن بالحسبان على الإطلاق. بدأت دقات قلبي تتسارع، وأول ما خطر بذهني أنني بمجيئي إلى دبي - ولم أعلم أحداً على اعتبار أنه نهاية أسبوع - قد اقترفت خطأ إدارياً. وقد نسيت وقتها أو تناسيت أن الذي يعمل بالمراسم الملكية لا يوجد عنده ما يُسمى نهاية أسبوع؛ إذ إن طبيعة العمل تتطلب التواجد في أي وقت، وأي يوم في الأسبوع. قلت في نفسي: لعله خير - إن

شاء الله - ولربما لا تزيد المسألة عن وصول ضيف بشكل مفاجئ، ولسبب أو آخر عرف سمو الأمير أنني غير موجود.

كل هذا طاف بذهني قبل أن أردَّ على الأمير سلمان - وبالمناسبة يمكن أن يطوف بذهن الإنسان من الأفكار والهواجس ما يملأ صفحات كتاب في ثوان، كما أن هناك تقليداً لطيفاً جداً يتَّبعه عاملو التلفونات في بيوت خادم الحرمين الشريفين، وسمو ولي العهد، وكبار الأمراء، وهو أن يخطرك عامل التليفون أنه سيصلك بالمتكلم لكي تستعد أنت لذلك. ابتدأني الأمير سلمان بسؤال بدا من لهجة سموه أن فيه بعض الحزم، أو هكذا خُيِّل إليَّ. قال: ماذا تعمل في دبي؟ قلت: لا شيء طول الله عمرك، وجدت بعض أصدقاء قادمين هنا، وجئت معهم (عسى خير؟) قال: أبداً، أنا ابتدأت أقرأ كتابك من الساعة العاشرة، والآن صار منتصف الليل، ووجدت الكتاب في الحقيقة شيئاً جميلاً وقيماً. وهو برأيي ليس فقط من أجل أولادك كما ذكرت في المقدمة، ولكنه يعتبر درساً ومرشداً لأبناء المملكة جميعاً. طبعاً للقارئ أن يتخيل الآن مدى تأثير هذه الكلمات على نفسي. لقد نزلت على قلبي كما تنحدر شربة ماء بارد في نهاية يوم صوم في نهار قائظ، كالذي كنا نعانيه عندما كنا نصوم ونحن صغاراً في المدينة المنورة في أشد أشهر الصيف حرارة، وألهبها سموماً. مضت نهاية الأسبوع، وعدت

إلى الرياض مع الإخوان، ووجدت كل مَن في المطار يطلب منصور الخريجي. نعم، أنا منصور، كلِّمْ الأمير سلمان حالاً..! لاحول ولا قوة إلا بالله. لا بد أنه وجد شيئاً في الكتاب لم يعجبه.

كان من نقل إليَّ الخبر حريصاً على أن أقوم بالمكالمة من المطار، ورفضت؛ لأنني أردت - إن كانت هناك «هوشه» من نوع ما - أن تكون داخل جدران بيتي؛ لأن من طبيعتي أنني لا أستطيع مثل بعض الناس أن أكتم ما في نفسي. يعني لو كنت غاضباً مثلاً أو فرحاً أو في أي حالة نفسية معينه، فإن الحالة هذه تكون مكتوبة بحروف بارزة على وجهي. وهذا يذكرني بأنني في أي مرة أحاول الكذب على أم نزار تعرف أنني أكذب؛ لأن ذلك مكتوب بالخط العريض على كل ملامحي. والكذب هنا من نوع الكذب الأبيض، أو ربما الرمادي الذي يكثر من استعماله معظم الرجال. المهم أنني عدت إلى البيت، وأسرعت إلى الهاتف، وطلبت الأمير سلمان. وجاء البشير مرة أخرى بما أثلج صدري، وأسعدني أيّما سعادة. قال الأمير سلمان إنه لم ينم تلك الليلة على الإطلاق، بل بقي مستيقظاً إلى أن قرأ الكتاب بأكمله. ثم راح يناقش معي بعض النقاط والتفاصيل الدقيقة التي لفتت نظره بصفة خاصة، وامتدح معظمها، وأبدى ملاحظات على بعضها الآخر.

*****

تحررت من هموم الوظيفة ولكن...

لقد أمضيت كل السنوات التي مرت من عمري وأنا أنتظر وأتوقع أشياء معينة، تحدث لي في حياتي، لكنها كانت دائماً تأتي عكس ما أتوقع، والحقيقة المُرَّة أنني أحرز قصب السبق في المرات التي أُصبتُ بها بخيبة الأمل. ولأختصر المسافة على القارئ - إن كان هناك أي قارئ لهذه الهترشة - فأشرح ما أعنيه. ظللتُ كل سنوات عمري الفاعلة؛ أي التي كنت أعمل بها قبل التقاعد، أعتقد أنني مهما كانت معاناة الوظيفة والحياة بشكل عام فإن هذه - كنت أقول لنفسي - سنوات أداء الواجب في خدمة الوطن، وسوف أنتقل بعدها لحياة سهلة مرفهة، سوف أعيشها بعد أن أتقاعد.

وتقاعدنا. والآن اسمحوا لي أن أعدد بنود السعادة التي أعيشها بعد التقاعد. أول شيء: ليس صحيحاً مهما ادَّعى المدَّعون - ولست منهم - أن التقاعد راحة كاملة، وسعادة خالصة. هناك في البداية صدمة التقاعد، فأنت عشتَ ما عشتَ في أبّهة الوظيفة، وتبخترت في دهاليز السلطة، ووجاهة المنصب، وتمتّعتَ بتزلّف المتزلّفين، وانتشيت بمدائح الانتهازيّين وطلاب المصلحة، ثم فجأة - وبعد كل هذا وذاك - تسقط من

عليائك، وتجد نفسك خارج دائرة الضوء، بعيداً عن الحياة النشطة التي اعتدت عليها سنوات طويلة. سوف تحتاج قبل كل شيء إلى وقت لإعادة التوازن. وهذا يذكرني بطرفة خفيفة تحكي عن رجل سقط من شرفة منزل وسط الشارع، واجتمع الناس حوله يسألونه: ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ نظر الرجل حوله، ثم وقف ينفض الغبار عن ملابسه، والناس لا تزال تسأل: ماذا حدث؟ هنا نظر الرجل إليهم، ورد بهدوء قائلاً: أنا مثلكم؛ لا أدري ماذا حدث؛ فأنا كما ترون وصلت للتوّ!.

دعوني أقررْ شيئاً مهماً هنا، وهو أنني وإن كنت أتحدث عن الخروج من الوظيفة أو التقاعد إلا أنني لا أقرر أن التقاعد شيء سيّئ، بل بالعكس؛ فهو بالإضافة إلى أنه أمر محتّم إلا أن له مزايا كثيرة طيبة، أولها الراحة والتخلص من المسؤولية، وهذه بذاتها نعمة كبيرة لمن حمل هم الوظيفة؛ إن لنفسك عليك حقاً، وكل إنسان أسهم في أداء خدمة مفيدة لبلده لهو جدير بأن يعيش بعد التقاعد حياته الخاصة مرتاحاً من همّ المسؤولية. إذن أين هي المشكلة؟ المشكلة أن السذّج أمثالي يعتقدون أنهم ما داموا أدّوا واجبهم - سواء في عمل رسمي أو خاص وأسهموا ما وسعهم الإسهام به في مسار الحياة - فإن أوان الراحة التامة والنوم العميق الذي لا تتخلله الكوابيس، صار من حقهم كاملاً غير منقوص، وأن من حقهم أيضاً أن

تصبح حياتهم بعد ذلك متعة صافية متصلة!. لكنهم - ويا للحزن - سرعان ما يكتشفون أن ذلك ليس إلا سراباً خادعاً، وأن الكوابيس ما زالت موجودة، لكنها من نوع آخر غير تلك التي كانت تغشاهم أيام الوظيفة.

أول شيء اكتشفته بعد أن خرجت من الوظيفة أنني قد غدوت شيخاً هرماً، قد تعطلت كثير من قدراته الجسمية والذهنية، المهمة والأقل أهمية. وماذا تنتظرون من عجوز تخطى الـ.. من عمره؟ عندما تكون على رأس العمل، يأخذك الواجب والمسؤوليات عن التفكير في نفسك، وفي عمرك، وكم أصبح وكيف أمسى. هذه حقيقة يعرفها كل الذين تقاعدوا. فالعمل على جهده ومشقاته ينسيك نفسك، ويبعث في أطرافك الحيوية والنشاط؛ وهذا ليس غريباً؛ لأن كل وظائف الجسم تكون نشطة متيقظة، تؤدي أدوارها المتعددة، ويتجدد بذلك نشاطها. ولكن ما إن تترك العمل حتى تسترخي كل أعضاء الجسم، ولا تلبث أن تستسلم لكسل لذيذ، تستمتع به عندما تتذكر كل صباح أنه ليس عليك أن تذهب للدوام. شعور لذيذ جداً إذا دام. لكنه بكل أسف لا يدوم. فأنت تبدأ أولاً بتذكر عدد سنين عمرك. تتذكر فجأة أنك لم تعد تصلح للوظيفة، وإذا حاولتَ نسيان هذه الحقيقة، فسيذكرك ظهرك الذي يصعب عليك استقامته عندما تقوم من كرسيك، كما تذكرك

أيضاً مفاصلك التي فقدت جزءاً من سوائلها، وانكمشت غضاريفها، وأخذت تحتكّ ببعضها بعضاً، وتئن أنت من جراء تحرشها الدائم ببعضها البعض. وتستمر تكتشف كل يوم أنك لم تعد ذلك الرجل النشيط، الذي يقفز السلالم، ويدخل حوض الحمام (البانيو) برشاقة وخفة. تنسى دائماً أنك لم تعد شاباً قوياً تأتي بالحركات نفسها التي اعتدت عليها طوال حياتك، ولكنك في كل مرة تصدم، وتذكرك أطرافك وظهرك أنّ عليك أنْ تتحرك ببطء وحذر، وأن الجسم الذي يحملك قد وهن العظم منه، وأن شعرك - إن كان بقي شيء منه في رأسك - قد ابيضّ، وصارت الشعرات من الدقة بحيث تشبه خيوط النايلو، كما تقول زوجتي وإنك لو جذبتها - ولو على طريقة معاوية - لاستجابت لك، ولخرجت بيدك كما لو كانت مغروسة في عجين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!... أي متعة هذه التي سأتمتع بها ما بقي لي من وقت في الدنيا!! هذا وقد ذكرت المفاصل والضعف العام الذي يصاحب السن، ولم أتطرق إلى بقية الأمراض العديدة، التي أخذت تتقوّى على الجسم الضعيف، وتعبث به.

ومع ذلك، فإن حكاية الهرم والأمراض تهون أمام أمور أخرى، سأتطرق لها حالاً، وأضيّق صدر أي قارئ تخطى الخمسين. ولكن قبل ذلك سأحكي حكاية صغيرة سمعتها من أحد الإخوان، وكان سبقنا للدراسة في ألمانيا. يقول الأخ: إنه

كان يسكن في غرفة لدى سيدة ألمانية عجوز، وفي أحد الأيام، وفي الصباح الباكر سمع طرقاً على باب غرفته، وكان الوقت ما زال فجراً. استيقظ مذعوراً إذ ظن أن حادثاً جللاً قد حدث. وعندما فتح الباب فوجئ بسيدة البيت تطلب منه إن كان لديه فكة مائة مارك؛ لأن ابنتها الموظفة في بلدة غير التي يوجد بها بيت أمها، جاءت لزيارة والدتها، وأن الأم تقاضت منها خمسين ماركاً، لكن لم تكن لدى البنت إلا مائة مارك، وتريد الأم فكّ المائة!..

مهما حكينا، ومهما اشتكينا فإنه يكفينا من نعم الله العديدة علينا أننا لسنا كأولئك الناس الذين تتقاضى الأم منهم من ابنتها نظير بياتها عندها لليلة واحدة. نحن نفني أنفسنا بسبيل أولادنا وأحفادنا. هل فهمتم الآن لماذا أتيت بالحكاية؟ أتيت بها لأقول إنني عندما خلصت من همّ الوظيفة والواجبات الرسمية، فإنني لم ولن أخلص من همّ أولادي وأحفادي وبقية أفراد أسرتي. وأنا أحمد الله على ذلك، وطالما أتذاكر مع أصدقائي بعض الثوابت الاجتماعية، مثل: الالتئام الأسري وينابيع الحب والحنان الدافقة التي تمتلئ بها نفوسنا نحو أسرنا. وطالما رددت في جلساتنا أننا وقد أنجبنا أولاداً وبناتاً سنبقى نحمل همومهم وهموم أولادهم إلى أن نموت نحن.

أعود بالقارئ إلى أول الفقرة السابقة، وهي كشكول الأمراض الذي يشعر بها المتقاعد فجأة بعد أن يترك العمل،

ويخلد إلى بيته. طالما تمنيت لو اقتصر الأمر بالنسبة لي على تيبس الأطراف، وتشنج العضلات، و(دسك) الظهر، وعملية الركبة التي لم تكن ناجحة، أقول لو كان الأمر اقتصر على ذلك، وكانت باقي شؤوني طيبة، لكنت في منتهى السعادة، ولما سمحت لنفسي بالشكوى المعلنة. إنما المسألة أكبر من ذلك. تنقلب الحياة رأساً على عقب، عندما ترى أحداً من أبنائك أو بناتك يتعذب، وتقف أنت مكتوف الأيدي، لا تستطيع المساعدة. هذا هو العذاب الخالص. ليس العذاب إذن أنك تقاعدت أو أنك تشتكي من علة ما في جسمك. أكرر مرة بعد مرة أن التقاعد بحدّ ذاته يجب أن يكون مناسبة للمتقاعد ليعنى بنفسه، ويعيش ما بقي له من أيام أو سنين في هدوء ودعة، ولكن الحكاية هي ما نواجهه من هموم الحياة عامة، وما يحيق بنا من هموم شخصية، وأول هذه الهموم أنك تجد نفسك في أغلب الأحيان وحيداً إلا من زوجتك، التي غالباً ما تكون قد بدأتْ تعاني مثل ما تعانيه أنت من المشكلات التي تأتي مع السن؛ أنواعاً من الأمراض والشكاوى التي لا تنتهي. ومرة أخرى وثالثة ورابعة ليت هذا كان كل أسباب الشكوى. فأنت تنظر حولك، وتجد أنك أصبحت وحيداً مع زوجتك، في بيت واسع كبير، خلت غرف الأولاد منهم ومن صخبهم الممتع. تسير بحذو الغرف التي كان يقطنها الأولاد، وقد خلتْ من ساكنيها،

ومنيتْ بالصمت الثقيل. أين إذن السعادة التي تأتي مع التقاعد؟.. لقد ذهب التقاعد بالنفوذ والسطوة، وخلا البيت من سكّانه، وعمّ الصمت الحزين.

هناك كلمة بالإنجليزية اسمها نوستالجيا: وترجمتها تعني الحنين إلى الماضي. يقال إننا دائماً نحنّ إلى الماضي، لكن ربما كان الماضي أجمل من الحاضر، ولو أن ذلك لن يعجب كل الناس.

أشعر دائماً بسعادة غامرة عندما أسرح بخيالي في أحداث حياتي الماضية وأعيش لحظات مع ذكرياتها الغالية.

كنت ذات مرة في زيارة لسوريا، وفي يوم المغادرة وكنت قد سويت الحساب مع الفندق في وقت مبكر وكان لدي بضع ساعات قبل موعد إقلاع الطائرة إلى المملكة، أخذت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يمر بي على بعض المناطق والأحياء التي عرفتها جيداً في صباي: المرجه وساحة الشهداء وشارع أبو رمانه ثم حي الميدان الشهير والذي كان القادمون من الجزيرة العربية «العقيلات» يقطنون به.

وصل بي السائق إلى مكان في الحي الكبير وطلبت منه أن يقف إذ كان علي أن أسير مشياً على الأقدام في الأزقة الضيقة التي لا تتسع لسيارة والتي أعرفها جيداً والتي تؤدي إلى منزل

الشيخ عبدالله العتيبي زوج خالتي أم محمد، عبدالله العتيبي الذي كان من كبار موظفي إمارة الرياض ثم أصبح سفيراً لبلاده في الإمارات والآن وبعد التقاعد لديه مكتب محاماة في الرياض، أخذت طريقي بين الأزقة إلى بيت العتيبي. لقد رجع بي الوقت إلى الوراء مكان السنين التي تزيد على الأربعين عاما تلاشت وكأنني كنت الآن عائداً مع محمد إلى البيت بعد أن أخذنا جولتنا اليومية في شوارع ومعالم دمشق.

وصلت بيت العتيبي الذي يقع في آخر شارع ضيق غير نافذ.

لاحظت أن تلك المنطقة ذات الشوارع الضيقة المتعرجة من الميدان قد أصبحت شبه خالية حيث يظهر أن معظم ساكنيها قد هجروها لمناطق أكثر اتساعاً وأحدث بنياناً. كانت تلك الشوارع في الماضي تعج بعشرات الأطفال الصغار الذين كانوا يملأونها صخباً.

لم أشاهد مخلوقاً في ذلك الشارع الصغير الذي يقع في نهايته بيت العتيبي. وقفت عند الباب وتطلعت من شق صغير انفرج في خشبات الباب العتيقة. كان السكون التام طبعاً يلف البيت المهجور منذ زمن بعيد، لكنني تخيلت أنني في أي لحظة سوف أرى الشيخ عبدالله العتيبي وهو يشعل النار في وجار

منزله ليعد قهوته التي يتناول منها ويقدم لضيوفه أعداداً لا تحصى من الفناجيل. رجعت إليّ في تلك اللحظات كل الذكريات الجميلة التي عشتها في ذلك البيت: خالتي أم محمد رحمها الله وهي ترتدي فوق ملابسها صديرية المطبخ وبيدها المغرفة الكبيرة التي تقلب بها الطعام وهي تخبرني أنها أعدت لي طبق «المزقعي» التي أحبها - هكذا تقول عن المصقعة.

تذكرت الربابة التي كنا محمد وأنا اشتريناها ومحاولتي اللعب عليها، خالي محمد يجلس قريباً مني مبتسماً بينما خالي أحمد انزعج على ما يبدو من أصوات الربابة النشاز، فكور يده حول فمه وراح يصدر أصواتاً يقلد فيها صوت الربابة المزعج.

تذكرت أيضاً فتيات الحي الجميلات اللائي اقتربن من سن النضوج وهن غاديات رائحات بملابس المدارس الأنيقة - وتذكرت كيف كنا محمد وأنا «يتصادف» دائماً أن نكون واقفين أمام باب منزل العتيبي المجاور بمنازل الفتيات لنملأ عيوننا بجمال وجوههن ونسمع ضحكاتهن الخجولة وسيرهن وهن متلاصقات يحاولن أن لا تلتقي عيونهن بعيوننا. لكننا لم نكن نعدم وسيلة ما لتبادل بعض الكلمات معهن.

مرت كل تلك الذكريات في رأسي وأنا أقف وحيداً أمام بيت العتيبي المهجور، والذي خيل إلي أنه ما زال يبكي أهله الذين

تركوه منذ سنين عديدة. كان شعوري في تلك اللحظات خليط من الحزن العميق لما آل إليه الحاضر ومن البهجة التي عاشها حلم الماضي.

لكن الحاضر كان أقوى من الماضي وعبر عن قوته بدمعة حارة تدحرجت فوق خدي.

أنا شخصياً أرى أن الأيام التي مضت من حياتي أحسن مليون مرة من التي أتت بعدها. خذ فقط السن؛ أصبحت أنا وهي وحيدين، في منزل واسع شاسع، ازداد في عيوننا اتساعاً بعد أن خلا من سكانه، لا شيء في هذه الدنيا يضاهي بجماله وروعته صخب الأطفال وضجيجهم في البيت. صدقوني إنه أجمل ما يطرق السمع، ولكن متى ندرك هذا؟ ندركه عندما ينقطع هذا الصخب، ويسود الصمت. سوف يصمّ آذانك الصمت الرهيب الذي يصيب البيت بعد أن يغادره الأولاد، بعد أن يكبروا. وأنا هنا لا أفرق بين أولادي عندما كانوا صغاراً، وبين أحفادي الذين ما زالوا صغاراً. عشت وزوجتي حالة السكون هذه فيما بين زواج الأبناء وبين إنجابهم لأطفالهم. تعبنا من الهدوء والسكينة. لا كأس تُكسر ولا طاولة تُقلب ولا كتب ومجلات تُبعثر أو تختفي.. كل شيء ساكن ثابت في مكانه. ولا يقول لي أحد: إن الأطفال ما وراهم إلا الدوشة ووجع الدماغ؛ لأن هذا ليس صحيحاً في مطلقه، فأنت تجد

سعادة غامرة حتى وأنت تطردهم من حجرتك، ويتضخم لديك شعور العظمة والدكتاتورية الرحيمة التي تداعب رأسك الذي خلا من الشعر، وأنت تأمر بناتك أو زوجات أبنائك أن يسرعن بإخراج أولئك العفاريت من غرفتك. ثم بعد أن يخرجوا كلهم ويهدأ المكان تبتسم بارتياح وتدعو الله تعالى أن يحفظهم وآباءهم وأمهاتهم، ويهبهم الحياة السعيدة المديدة.

ذكرت في كتابي الأول أنّ لديّ ولدين هما نزار وإياد وابنة واحدة. يقطن نزار وإياد في جدة، بينما تسكن ابنتي في الرياض. وحيث إنني أحكي حكايات ما بعد التقاعد، وأنا أقضي كما ذكرت وقتاً أطول في الرياض؛ لأنني أعتبرها بلد الإقامة الرئيسة، فأنا لهذا لا أحصل دائماً على ما أتمناه من وجود الأولاد والأحفاد عندي كلما رغبت في ذلك. فأولاد الأولاد في جدة وأولاد البنت في الرياض، أشاهدهم في نهاية الأسبوع، وليس في نهاية كل أسبوع، ماذا بقي إذن من متعة التقاعد؟ بقيت هذه الذكريات التي أخوض الآن غمارها، وأتخبّط بين متاهاتها ودهاليزها، أمرّ على أبوابها العديدة أرفع يدي لأقرع أجراسها، وأتردد؛ فقد تنفرج الأبواب عن أعشاش للدبابير، من الأحسن أن تبقى خلف الأبواب الموصدة.

*****

obeikandl.com

هموم الحياة لا تنتهي مع التقاعد

يبادرني كثير من الأصدقاء والمعارف بالقول عندما يروننني إنني أصبحت الآن بعد التقاعد حراً طليقاً، أعيش كما أشاء، أسهر، أسافر، يعني انكسرت كل القيود مع الخروج من الوظيفة، ولم يبقَ إلا أن أعوّض ما فاتني من متع الحياة المسموحة. ويفاجأ هؤلاء الأصدقاء ببقائي لمدد طويلة في الرياض أو جدة، وأنني لم أسارع إلى ركوب الجو والبحر، وكل وسائل السفر أسوح في بلاد الله الواسعة، متنوعة الحضارات والثقافات والبيئات، أغرف كما يحلو لي من المعرفة ومن حضارة الآخرين، وأطّلع على عادات وطرق معيشة عباد الله في أنحاء الكرة الأرضية، أو أهرب على الأقل في الصيف من حر الرياض، ورطوبة جدة - وجوابي على تساؤلات واستغراب الإخوان والمحبين أنني أتمنى كل ذلك، ولكن - وآهٍ من (لكن) هذه - ودعوني أشرح قليلاً:

كل واحد منا يلجأ أحياناً إلى تخيلات وتصورات يعيشها، للحظات ينسى فيها واقعه، خاصة إذا كان ذلك الواقع ليس كما يجب دائماً. وقلّ أن تجد من الناس من هو راضٍ كل الرضا عن واقعه، لا بد وأن هناك شيئاً ما غير موجود. وعندما تكون

الرغبة في ذلك الشيء غير الموجود قوية، عندها تبدأ مرحلة التمني التي قد تدخل صاحبها في شيء من الهذيان، كأن يتمنى مثلاً أن لو كان حراً طليقاً وحيداً، لا يربطه رابط بأحد من البشر. يعني مقطوع من شجرة، أقول إن مثل هذه التخيلات تنتابني أيضاً، بصفتي واحد من الناس. نُصاب أحياناً بإحباط، أو لحظة حزن، ونترك لخيالنا العنان يبدل ذلك الحزن بفرح، نحقق هذا باللجوء إلى الخيال الواسع، وما يسمى أحلام اليقظة، نلجأ إليها لنتقي الألم الذي لا يستأذن عندما يهاجم نفوسنا. وأنا لست أبداً مقطوعاً من شجرة، ولا أتمنى ذلك، بل إنني والحمد لله أرى نفسي شجرة كبيرة، تعيش وسط غابة من الأشجار الصغيرة والكبيرة التي تحيط بها، تتشابك أغصانها، وتحتضن بعضها بعضاً، وتتفيأ ظلال بعضها بعضا، وتعطي ثمارها يانعة. فكيف والحال هذه يمكن لي أن أنسى كل هذا، وأتخلى عن كل هذا، وأضرب في الأرض شرقاً وغرباً تاركاً ورائي تلك الخميلة التي تستظل بظلي، وتمدّ فروعها، تلمس أغصاني، وتلتفّ حولها؟ نعم، يخطر على بالي أحياناً أن لو كنت طليقاً حراً، أروح وأجيء كما أشاء، لا مسؤوليات، ولا واجبات، ولا التزامات، ولكن كيف يكون حراً من ينوء بحمل شخصيات عدة ليس شخصية واحدة فقط؛ هي شخصية الزوج والأب والجد والأخ والعم والخال! فأي من تلك الشخصيات هي التي ترمي

عن كاهلها ثقل المسؤولية، وتنطلق تسعى وراء متعتها ولهوها، ولو البريء، متجاهلة أو متناسية كل أولئك الذين يلوذون بها! وهكذا ترون أن الانفكاك من قيود الوظيفة هو انفكاك من قيد واحد فقط، أما القيود الأخرى فليس هناك انفكاك منها، فهي قيود أبدية!

ثم مَنْ هو هذا الإنسان الذي يظن ولو للحظة واحدة أن الانفكاك من قيود الوظيفة هو نهاية عهد عبودية، وبداية عهد حرية وانطلاق؟

إن الحياة مليئة بالمشكلات والمنغصات، وليس أسوأها قيود الوظيفة أو مشكلات العمل، بل إن بعض الوظائف الرسمية لها سحرها ووجاهتها، التي يتمنى كثيرون أن ينالوها؛ ليس هناك دليل على سحر الوظيفة خاصة القريبة من القمة أكبر من حقيقة أن بعض الذين يحملون على التقاعد يبقون لفترات تقصر أو تطول وهم يتجاهلون حقيقة تقاعدهم. يروحون ويجيئون إلى مكان عملهم ولو لم تعد لهم مكاتبهم التي كانت، إلا أنهم يتخذون من دهاليز الدواوين قواعد يعلنون بها عن وجودهم ليبقوا كما يتخيلون في الصورة التي كانوا عليها. إنها عوامل نفسية تحتاج إلى مواجهة شجاعة مع النفس والواقع. كما أن التقاليد التي جرى عليها العرف في هذه البلاد أن من

أسدى خدمة ما للدولة وللوطن يقابل بأوجه عديدة من الامتنان والتقدير، منها أنه يترك موقعه الذي خدم فيه، ولو أنه أصبح بالإمكان الاستغناء عنه لتقدمه في السن أو للاستغناء عن نوع الخدمة التي كان يؤديها. بعض الأشخاص يبقون في أماكنهم حتى بعد أن ينساهم العمل وينساهم الناس، وهم ربما كانوا سعداء في أن يروحوا ويعودوا إلى ومن مقار عملهم دون أن يشعر بهم أحد أو يكون لوجودهم أي غرض اللهم إلا الاعتراف الضمني بخدمات سبق أن أسدوها.

نعود إلى المنغصات وهي كثيرة. واحدة منها مثلا... جاءت على شكل لم أتوقعه أبداً؛ فقد اشتريت قطعة أرض في جدة قريبة من بيوت أبنائي، حيث أرادت زوجتي أم نزار أن يكون لنا منزل قريب من بيوت الأولاد. اشترينا قطعة الأرض وحصلنا على فَسْح بناء من البلدية المسؤولة لتشييد المنزل. ولكن ما إن بدأنا العمل حتى جاءنا مندوب من البلدية نفسها التي أصدرت الفسح، جاءنا بالأمر بأن نتوقف عن البناء؛ لأن الأرض مملوكة لبنك محلي!! أسقط في أيدينا، ولا يزال السقوط قائماً، ما زلنا لا نستطيع الاستحواذ على الأرض، أو الحصول على النقود التي دفعناها ثمناً للأرض، وما زالت القضية تراوح مكانها، وقد مضى عليها إلى كتابة هذه الكلمات أكثر من سنتين. لا بناء ولا حصول على المبلغ الذي دفعته ثمناً للأرض. ويستغرب

الإخوان أنني قليل الأسفار، ولم أغتنم فرصة التقاعد، وأجوب الكرة الأرضية شرقها وغربها وجنوبها وشمالها.

وما دمت بصدد الحديث عن مشكلة الأرض هذه، فإنني أحب أن أسترسل قليلاً عن تداعياتها، وكيف بدأت، ولو أنني لا أستطيع التنبؤ كيف ستنتهي. لقد كتبت مقالة نشرتها في جريدة الجزيرة حول الموضوع، وسأضمها إلى هذا الكتاب؛ لأنها شكلت جزءاً من أحداث حياتي ومعاناتي، وأضيف الآن أن الرجل الذي باعني الأرض، باعها وهو يعرف تماماً أنه لا يملكها. والمحتالون من مثل هذا الرجل يتمتعون بالإضافة إلى نزعة الاحتيال بذكاء جيد. وكما ذكرت سابقاً كانت الأرض مملوكة لأحد البنوك، لكنّ بائعي كان معه (صكّ) الأرض الذي لم يُلغَ لتقصير في بعض الإجراءات التي كان يجب أن تتم، ومنها إلغاء (صكّه).

جاء إلى منزلي وأذكر أنه كان على أقصى درجة من اللطف والرقة والأدب، وقررت وقتها أن أتخذ من هذا الرجل صديقاً؛ لأنه سحرني حقيقةً برقته ولطفه وأدبه، إلا أنه للأسف كان ممثلاً بارعاً، ولا يلام؛ فقد كان على وشك أن يتسلم شيكاً ضخماً قيمته مليونا ريال، يأتيه عن طريق الخداع والاحتيال. هذا الرجل نفسه عندما قررت أن أكتب مقالة أشرح فيها كيف

تم خداعي قررت أن أهاتفه؛ لأخبره بما سأفعل، وكانت مفاجأتي كبيرة عندما أجابني بكل وقاحة وسلاطة لسان: إنّ بيع الأرض كان صحيحاً والصك صحيح، وتحداني أن «اركب أعلى ما في خيلك». وكما ذكرت فإن أولئك المحتالين يدركون للأسف الشديد أن الإجراءات القانونية عندنا بطيئة، وقد تستغرق قضية مثل قضيتي هذه سنين طويلة قبل أن تحسم، يكون هو قد استفاد الفائدة الكبرى من احتياله وخداعه، وأكون أنا قد تعبت، وربما أيضاً توفاني الله!.

وكما ذكرت فإن أمثال هذا المخادع يتمتعون بالذكاء، وبالتخطيط المدروس، وربما ينجح في ادّعاء أنه معسر عندما تصل الأمور إلى نهاياتها، ويحصل على عفو حكومي، أو تدفع الدولة عنه ما سرقه!!. والأغرب من كل هذا أنه عندما أعلمتُه أنني سأكتب مقالة حول الموضوع، أجاب بكل وقاحة أنني أستطيع أيضاً أن أذكر اسمه كاملاً، وأعطاني اسمه الرباعي!! وقد ندمت بعد نشر المقالة أنني لم أذكر اسمه كاملاً في مقالتي. لكن ربما أجد مناسبة أخرى لقبول تحديه ونشر اسمه كاملاً، إلا أنني الآن لا أرغب في أن أدنس كتابي بوضع اسمه فيه.

لقد ساقني الحديث عن المحتال الذي خدعني إلى قصة سابقة حصلت لي أيضاً. ولا أعلم إن كنت أنا فقط أعاني من مثل هذه المشكلات أو أنها شيء موجود لا نملك له دفعا،

ويعاني منه أناس كثيرون. ما حصل منذ سنين عديدة، عندما أقدمت على تشييد منزلي هنا بالرياض، الذي ما زلت أعيش فيه أن شركة ألمانية حصلت مني على عقد البناء. كان يمثل الشركة شخص ذو نفوذ، ويظهر أنه تسلَّم مبالغ مالية من الشركة التي كان لديها أيضاً عقود عدة أخرى، تسلمت أقساطها الأولى قبل أن تبدأ العمل. وكيل الشركة السعودية تسلم المبالغ واختفى بها! ولما وجدت الشركة نفسها في موقفها الصعب جمع مديرها ومعاونوه أحمالهم واختفوا في ليلٍ أظلم، ولم يظهروا إلا في بلدهم. ولأختصر القصة، ذُكر لي محامٍ ألماني له صلات ببعض الأشخاص عندنا في المملكة. اتصلت به ووكلته بالقضية؛ ولم يمضِ إلا شهر أو اثنان حتى حصل لي على نقودي كاملة، زائداً الفوائد المفروضة التي اكتسبتها نقودي خلال المدة التي كانت في حوزة الشركة أو وكيلها. لقد تتبع المحامون الشركة حتى دفعت ما عليها لكل زبون يتعامل معها، وحتى أفلست نهائياً وبيعت متعلقاتها، وحصلتُ كما حصل غيري من المدعين على كامل حقوقي زائداً الفائدة كما ذكرت.

أصعب معاناة يمكن أن يعانيها إنسان هو أن يرى ماله يُسلب منه بالخداع والسرقة، ولا يستطيع فعل شيء

لرده ومجازاة السارق. والآن إلى المقالة التي نشرتها عن الموضوع:

إبل عبدالمطلب

منصور بن محمد الخريجي

عندما هاجم أبرهة الحبشي مكة المكرمة في العهد الجاهلي، محاولاً الاستيلاء عليها وهدم الكعبة المشرفة، استولى بعض أفراد جيشه على إبل لعبدالمطلب بن هاشم جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما طلب عبدالمطلب مقابلة أبرهة، ظنّ هذا أنّه سيطلب منه الانصراف عن مكة وعدم التعرض للكعبة بشرٍّ، إلاّ أنّه فوجئ أنّ الشيخ الجليل طلب من القائد الحبشي أن يعيد له إبله! ولما أبدى الحبشي استغرابه من طلبه هذا، وقال له إنه ظنّ أنّه قدِم إليه ليطلب منه أن يرجع عن هدم الكعبة، أجابه زعيم قريش أنّه إنّما يطالب بإبله فقط، أمّا البيت فإنّ له رباً يحميه.

سقت هذه القصة المعروفة لأشرح لماذا أكتب الآن ما سوف تقرؤونه، وهو أمر يخصني أنا شخصياً ولا مصلحة ولا فائدة منه لأيٍّ قارئ يقرأه، اللهمَّ إلاّ إذا كان لم يسمع بحكاية عبدالمطلب مع الحبشي.. ثم دعوني أضيف أنني لا أشعر بذنب ما إذا لم أكتب الآن شيئاً يخص أو يفيد عامة الناس، أو له هدف إصلاحي اجتماعي، وهو ما درجت على الكتابة حوله من

وقت لآخر في بعض صحفنا المحلية، والسبب أنني لا أرى داعياً لاعتذاري عن الكتابة الآن في موضوع لا يهم الناس هو أنني لا أذكر أن تعرضت في كتاباتي لأي موضوع يهم الناس واستجاب مسؤول لما كتبت أو اقترحت!. وهذا ما دفعني أن أجمع كل ما كتبته في الصحف والمجلات وأضعه في كتاب جعلت عنوانه (**كلام جرائد**) لأننا عندما نريد أن نقول عن شيء إنّه لا قيمة له نقول عنه إنّه كلام جرائد.

والآن أدخل في الموضوع الذي يخصني والذي حملني على كتابة هذا المقال والذي أيضاً آلمني وما زال يؤلمني ويؤرقني منذ أكثر من ثلاث سنوات.. كنت منذ تلك المدة أو أكثر، اشتريت قطعة أرض في جدة لأنشئ بيتاً عليها حتى أكون قريباً من بيوت أبنائي الذين يعيشون في جدة، والتي ألحت زوجتي أم نزار أن تكون بقربهم، بعدما خلت ديارنا من ابنيّ نزار وإياد وأولادهما وانتقلوا إلى بيوت مستقلة كما هي سنّة الخلق منذ الأزل.. لا أريد أن أطيل في القصة حتى لا أدفع بالقارئ إلى رمي الجريدة جانباً وإنّما أريد أن أقول فقط إنّ الشخص الذي باعني الأرض باعني شيئاً لم يكن يملكه، ويعرف أنّه لا يمكله وأنّ الصك الذي باعني الأرض بموجبه كان ملغياً ولا قيمة له وهو يعرف ذلك جيداً.. لقد احتال عليّ وعلى الوسيط والدلاّل، أو هكذا أفهمني الدلاّل! وكنت أنا الضحية، ودفعت مبلغاً كبيراً

لأرض عرف بائعها أنّه خدعني مع الإصرار والتصميم، هذا عدا المبلغ الكبير للسعي كما يسمونه الذي كان أكبر من المتعارف عليه؛ بسبب أنّ الأرض كانت رخيصة كما ادعى الساعي مقارنة بأسعار مثيلاتها!!

سوف يقول القارئ إنني ساذج قطعاً أن أشتري أرضاً بهذا الشكل دون التأكد من أنه ليس فيها أي مشاكل، ولكن ماذا عن كاتب العدل الذي نقل الصك باسمي ولم يلاحظ ذلك أو يدقق فيه، مما هو من صميم عمله؟ وماذا أيضاً عن أمانة مدينة جدة وفرعها الذي أصدر ترخيصاً لي بالبناء وبدأت فعلاً عملية البناء، وجاء بعدها مندوب نفس فرع البلدية في أبحر الجنوبية وبكل صفاقة أمر المقاول أن يوقف البناء. لقد وصل التسيب في عالم البلديات حدوداً فلكية يقترفون الأخطاء الرهيبة ويضرون الناس ويعذبونهم ولا حسيب ولا رقيب.

من سيعوضني المليوني ريال اللذين دفعتهما لذلك الرجل واللذين استحلهما ضارباً عرض الحائط بكل القيم الدينية والقانونية والاجتماعية؟

في أي مكان في الدنيا المفروض الآن أن أحصل ليس فقط على ما دفعته بل على ما دفعت من سعي وعلى مدة السنين الثلاثة التي لم أسكن فيها في منزلي.

كنت طوال هذه السنين الثلاثة تركت الموضوع بيد محامٍ، إلا أنني الآن وقد عزمت على كتابة هذا المقال فكرت أن أتصل بالسيد بائع الأرض لعل وعسى. اتصلت به مساء يوم الاثنين الماضي محاولاً أن أتفاهم من قبل نشر هذا المقال. هل تعرفون ماذا كان جوابه؟ لقد قال بكل بساطة: إن الشخص الذي باعه الأرض خدعه؛ لأن الأرض مملوكة لبنك، وإنه هو بالتالي باعها لي على هذا الأساس، وإنه سوف يدفع لي دراهمي إذا حصل عليها من البائع الأول!!

وللعلم فإن الرجل ثري ولديه محلات تجارية وعمارات وصيدليات؛ أقول هذا حتى لا يخدع السلطة المختصة بأنه معسر كما يفعل كثير من المحتالين أمثاله. ومن أغرب الأمور أنه عندما أتى إلى منزلي وأكملنا عملية البيع كان يقطر رقة وأدباً ودماثة خلق. بعد ذلك عرفت لماذا كان كل ذلك الأدب الجم.

والآن لماذا أنشر هذا الكلام علناً ونحن كمسلمين أُمرنا أن نتعاون على قضاء حوائجنا بالكتمان؟ الجواب إنّه مضى الآن، كما ذكرت، أكثر من ثلاث سنوات وقضيتي لا تزال تراوح في مكانها ولم أستطع وبمساعدة محامٍ دفعت له إلى الآن مبلغاً نظير أتعابه، لم أستطع أن أتملك الأرض، كما لم أستطع استرداد دراهمي[1].. البائع موجود ويعيش في جدة ومكانه

(١) صدر بعد نشر المقالة بفترة حكم المحكمة الشرعية بجدة يلزم البائع برد ثمن الأرض الذي أخذه مني. ولم ينفذ الحكم بعد.

معروف، ومحلاته التجارية معروفة، وهو ما زال إلى اليوم يخرج لسانه لي ولجميع الذي يعملون معي في القضية. ويبدو أنّه لا يخشى أحداً - وأقول أحداً من الناس - لأنّه بالأحرى لو كان يخشى الله لما اقترف ما اقترف في حقي، ولما أكل وشرب وأطعم أولاده من مال حرام.. إنّ ما اقترفه هذا الرجل بحقي هو سرقة واضحة اقترفها في وضح النهار دون خوف، لم أكن أظنّ أنّ قضية بهذا الوضوح والبساطة تأخذ من القضاة والمحكمة طوال هذه المدة دون حلها.

لقد قامت الدولة في هذه البلاد على يد مؤسسها الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه وثبَّت فيها أسس العدل، وأحقّ الحق، وضرب على أيدي العابثين بأمنها وأمانها بعد أن كانت مسرحاً للفوضى وغياب القانون وقطّاع الطرق واللصوص.. لكن يبدو أنّ بعض هؤلاء عادوا بهيئات وأشكال جديدة حديثة وطوَّروا من أساليب احتيالهم وطرق سرقاتهم. إنّ من أصعب الأمور أن ترى نفسك وقد ابتزّك إنسان ما وخدعك واستولى على مالك بالخداع والغش والسرقة، حتى ولو كان المسروق ريالاً واحداً. إنّ هذا الرجل ابتزَّني، والقضية لدى المحاكم ولم يحكم بها على الرغم من مضي وقت طويل، لكنني لن أسكت ولن أتنازل عن حقي ما بقي له عمر.. أريد أن يعود لي حقي وأريد أن يعلن اسم هذا الرجل على الملأ عندما يتأكد القضاء من احتياله،

كما أدعو إلى إعلان كلّ أسماء المحتالين والدجّالين واللصوص الذين تثبت جرائمهم حتى يتقي الناس شرورهم وحتى يكف أذاهم عن الناس لأنهم ما داموا طلقاء فلسوف يستمرون في السرقات والاحتيال على الناس، ولدى الجهات المختصة الآن على ما أظن أعداد منهم.

وإذا قيل إنّ من نتهمهم قد يكونون أبرياء نقول إنّ على المحاكم أن تشمّر عن ساعد الجد وتجتهد في الفصل في القضايا الكثيرة التي تأخذ أعواماً قبل البت فيها مثل قضيتي هذه - وعندها يمكن لنا أن نعلن عن أسماء المحتالين واللصوص الذين لا يتورّعون ولم يتورّعوا على مدى تاريخ الإنسانية من مثل ذلك؛ ولهذا وُجِدَتْ القوانين ووُجد العدل والحماية للناس وممتلكاتهم.

ومرة أخرى أكرر أنه لا تفيدني دراهمي إذا حصلت عليها بعد أن أموت...

لديّ أخيراً اقتراح لمليكنا الصالح المصلح خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز حفظه الله وهو الحريص على مصالح ورفاهة شعبه وحقوقهم، والاقتراح هو إنشاء مجمع عقاري كبير يحوي أقساماً لمحاكم مستعجلة ولكتابة عدل، وفروعاً لبلديات المدن المقام فيها المجمع، ويحوي أيضاً مراكز للشرطة وفروعاً للبنوك وفروعاً للوزارات ذات

العلاقة مثل؛ وزارات العدل والبلديات والتجارة والزراعة - كما يضم المجمع سجناً يستقبل كلَّ من يثبت تلاعبه واحتياله على الناس.. ولعلّ مثل هذا المجمع يحد أيضاً من تلاعب أصحاب المساهمات الذين خدع بعضهم الناس واستولوا على مدّخراتهم ونسوهم. لا بدّ من التحرك ضد أولئك الذين لا ضمائر لهم والذين ما فتئوا يحتالون على الناس، وكثير منهم معروفون، والضرب على أيديهم بحزم من أهم واجبات الدولة وأجهزة الدولة التي استطاعت بحمد الله وقوّته القضاء على العصابات الإجرامية الضالة لن تعجز إن شاء الله عن التصدّي لمواجهة الإرهاب غير المسلّح وهو خداع الناس وابتزازهم..

كما أتمنى أن يقرأ مقالي هذا معالي وزير العدل الدكتور عبدالله بن محمد آل الشيخ وفضيلة الشيخ صالح اللحيدان رئيس مجلس القضاء الأعلى وأي من الاثنين يستطيع من موقعه أن يحل مشكلتي هذه، ولا أشك إلا أن هناك مشاكل عديدة ومتنوعة من مثل قضيتي وأدرك تماماً أن رأسي المسؤولين اللذين ذكرتهما مليئان بقضايا أكبر وأصعب من قضيتي ولكن هذا قدرهما في مواقعهما ولهما منا إن شاء الله الدعاء بالتوفيق والقوة.

والله من وراء القصد.

*****

عن الكتابة والكتب

كثيرون في الواقع هم الذين أبدوا إعجاباً كبيراً في كتابي الأول «**ما لم تقله الوظيفة**»، ولا يزالون إلى الآن كلما جاءت سيرته يمتدحونه بلا حدود. ولربما لا يكون نجاح الكتاب الأول لأي كاتب كله خيراً خالصاً؛ إذ إن ذلك يتطلب أن يكون أي كتاب يأتي بعده من الكاتب في مستواه أو أحسن منه.

وأنا قمت بتأليف رواية هي «**دروس إضافية**»، كما ترجمت كتاباً من كتب الرَّحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية، هو «**عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل**». وهذا الكتاب الأخير صغير ومتواضع، ومؤلفه شاب دنمركي، قام بالرحلة استجابة لطلب الجمعية الملكية الدنماركية الجغرافية. وقد قام الرَّحالة برحلته في العام ١٩١٢ ميلادية، ووصل في رحلته إلى الرياض، وصادف وقت وصوله أن كان الملك عبدالعزيز رحمه الله في إحدى غزواته لتوحيد الجزيرة، التي أصبحت المملكة العربية السعودية. وقابل الرَّحالةُ الإمامَ عبدالرحمن بن فيصل، والد الملك عبدالعزيز، الذي أكرم وفادته، وأمده بالمرشدين والمؤن والركائب التي أخذته إلى الأحساء، ومنها إلى البحرين عائداً بإحدى السفن إلى بلاده.

أما الرواية فهي تحكي قصة ثلاثة شباب، سافروا من الرياض في الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي بعد نيلهم شهادة الثانوية العامة إلى أمريكا للدراسة الجامعية. هذه الرواية نشرتها في لبنان بعد أن رفضت الرقابة في وزارة الإعلام نشرها؛ حيث ادّعى الرقيب أنها تتجاوز الخط المسموح به في مجالها القصصي. وقد سعيت مراراً لتغيير هذه التهمة غير العادلة، إلى أن قالت الوزارة ذات مرة: إنها رفعت عنها الحظر، ويمكنني إحضارها لبيعها في المملكة. وصدقتهم، واتفقت مع مكتبة العبيكان لإحضارها، وأتوا ببضع مئات من النسخ، ليفاجؤوا وأفاجأ بأن الوزارة رجعت في قرارها، وأن المنع لا يزال سارياً، ولتتورط المكتبة بعبء تخزينها في مخازنها وما زالت سجينة تلك المخازن[1]. كم أتمنى أن أعرف من هم العباقرة الحكماء الذين يقررون لنا ماذا نقرأ وماذا لا نقرأ؟ إن محاصرة الإنتاج الأدبي لأدباء بلادنا شيء يجب أن يَبلى وينتهي. لقد عفا عليه الزمن، وأصبح من السذاجة بمكان أن نمنع أدباءنا من نشر إنتاجهم، بل ومن تشجيعهم على الإبداع والإنتاج، طالما لا يمس ذلك أساسيات شريعتنا وموروثنا

(١) أعيدت نسخ الكتاب فيما بعد إلى الناشر في بيروت.

الاجتماعي والأخلاقي، ثم ما هي فائدة القيود التي تفرض على عمل أدبي، والعالم الآن بما فيه من غث وسمين وصالح وطالح مكشوف ومعروض أمام أي إنسان بلمسة زر؟

إن بعض كتب الدكتور غازي القصيبي ممنوعة في المملكة على ما أعرف، وهو وزير في الدولة. أسأل نفسي أحياناً: ماذا سيفعل غازي في كتبه الممنوعة لو صار وزيراً للإعلام والثقافة؟

هذا الكتاب بالمناسبة - إن قدر له أن يصبح كتاباً - سوف يكون أفكاراً ونثرات من هنا وهناك، يعني أنني سأكتب بعفوية لم أمارسها من قبل، سوف أكتب كل ما أتذكره، وكل ما يخطر على بالي. ولكن قبل أن يبدأ القارئ بالتلمظ بشيء لم يذق طعمه بعد، سأجذبه إلى الأرض قبل أن يُحَلِّق عالياً متوقعاً مني أن آتي بما لم تستطعه الأوائل. قصدت أنني سوف أكتب ما يمكن كتابته، كما تتداعى الأفكار برأسي. ولعلنا كلنا نعرف أن ما يمكن كتابته هو أقل القليل مما تختزنه الذاكرة، ومما يمر على الرأس من أحداث وتجارب وحكايات ومغامرات، وأظن أنني قلت قبل ذلك في بعض كتاباتي - ولعلي حكيتها فقط - إن كُتَّاب السِّيَر الذاتية والمذكرات المتعلقة بحياة الأشخاص لا بد وأن تكون كتاباتهم منتقاة مختارة، خاصة ونحن العرب

تصفنا كل شعوب العالم بالقدرة على العيش حياتين مختلفتين، بوجهين مختلفين، وأقوال ومواقف لكل مناسبة. نحن أمهر الناس بالعيش حياة مزدوجة: واحدة أمام الناس، والثانية لأنفسنا فقط، وربما لبعض المقربين منا. ربما يقول قائل: إن هذا هو طبع الحياة والناس، وأجيب: إن هذا صحيح، ولكن نحن المنتمين للشعوب العربية أتقنّا هذا السلوك المزدوج بشكل يحسدنا عليه الآخرون!

وما دمت بصدد الحديث عن كتابة المذكرات والسير الذاتية، فأزيد هنا أن المذكرات يمكن أن تكون عملاً عظيماً مجيداً، يعطي أروع الدروس، وأنبل العظات، ويكون صاحبها في الوقت نفسه إنساناً بسيطاً، جاء إلى هذه الدنيا، وغادرها، دون أن يشعر به أحد. وأولاً وأخيراً تتنوع المذكرات بتنوع مِهَن أصحابها؛ فقد قرأت ذات يوم مذكرات ممثلة غربية، ودهشت للصراحة والمكاشفة الكاملة التي انتهجتها تلك المرأة، بينما يمنعنا نحن الشرقيين حياؤنا الفطري، وعقيدتنا وموروثاتنا الاجتماعية العديدة من الإتيان بمثل ما أتت به تلك الممثلة الأمريكية.

أذكر أن المرأة هذه سألت ابنتها قبل نشر المذكرات إن كان عليها أن تقول كل شيء، أو تختار نتفاً من حياتها تقدمها للناس. كان جواب ابنتها: إنها لا داعي لجهد ضائع إن لم تَبُح

بكل شيء، وهكذا كان؛ فقد كشفت كل شيء، بما في ذلك لحظاتها الحميمية مع أصدقائها العديدين.

لقد قرأ روايتي بعض الأكاديميين، وبعض الكُتَّاب، وكتب بعضهم عنها، لا أدري إلى هذه اللحظة إن كان ما كُتب عنها مجاملة لي لأن الرواية لا تستحق القراءة أم أن من كتب عنها كان صادقاً في دراسته ونقده. أعرف معرفة اليقين أن بعض من كتبوا عنها فعلوا ذلك مجاملة لي، أما كيف عرفت ذلك، فهذا أمر أحتفظ به لنفسي.

هناك دارس كتب عن الرواية لم أعد أذكر اسمه، وإنما أذكر أنني قرأت ما كتبه مرات عدة، ولم أفهم كلمة واحدة مما قاله، مما جعلني أعتقد أن وزارة الإعلام كان لها العذر في رفض روايتي. ولكن لكي لا أظلم نفسي، أضيف أن الناقد الذي لم أفهمه ينتمي ربما إلى ما يُسمّى مدرسة النقد الحديث، الذي يبدو أن أهم ما يميزه هو أن يكون غامضاً عصيّاً على الفهم! والغريب أن هذا الاتجاه النقدي له الآن رجاله الذين يشار لهم بالبنان كما يقولون، وأصبحوا يحصلون على الجوائز والتكريم، وكلما أوغلوا في الغموض ازدادت رهبة القراء منهم وربما إعجابهم بهم.

ذات مرة حضر كبير نُقَّاد الحداثة هؤلاء إلى بيت أحد الأصدقاء، وجاءت سيرة كتابي «**ما لم تقله الوظيفة**»، فأرسلت

من أحضر لي نسخاً منه، ووزعتها على الحاضرين، وكان بعضهم من دول عربية أخرى. أخذ الجميع الكتب وشكروني- طبعاً- كما يُتَوَقَّع من كل ذي عقل سليم. إلا أن أخانا هذا بدا عليه الامتعاض، وكأني أسأت إليه بإهدائي كتابي له. تناول الكتاب «بدون نفس»، ولم يقل كلمة واحدة. لا أزال أندم إلى الآن على أنني لم أسترجع الكتاب منه في تلك اللحظة نفسها. ولكن معروف عنا نحن أهل هذه البلاد أننا نفعل الطيب حتى لو نرميه في البحر كما يقول المثل، ولماذا أندم على إعطائي ذلك الرجل كتابي، وهو على كل حال لا شك أنه عانى وتعذب في قراءته إن كان قرأه؛ لأنه مفهوم وسهل القراءة، وأسلوبي هو السهل الممتنع، كما قال لي كثير ممن كتبوا عنه.

يقودني هذا الكلام إلى مسألة توزيع الكتب أو إعطاء الكتب للأصدقاء والمعارف وغيرهم. لا يسألك أحد أبداً عن المكتبة التي تبيع كتابك، بل كلهم يطلبون كتابة إهداء على الكتاب وهذا يعني تقديم الكتاب دون مقابل. إن كتابي السيرة الذاتية «**ما لم تقله الوظيفة**» مقروء جداً، وهذا طبعاً بشهادة كل الذين قرؤوه، وبعضهم قرأه في ليلة واحدة، وكثير ممن قرؤوه ذكروا أنهم كانوا يتخاصمون مع زوجاتهم: أيهم يقرأه أولاً. لقد كتب الأخ الدكتور عزت خطاب عن كتابي، ووصفه حسب التعبير الإنجليزي أنه (Best Seller)، يعني: من أحسن

الكتب مبيعاً أو أكثرها رواجاً، إن كنا نريد الصيغة العربية. ولكن أين هي عائدات الكتاب؟ لم أرَ منها شيئاً، فكما قلت، ذهبتْ معظم نسخه إهداء، وهذا طبع الناس هنا، وأنا بالمناسبة لا أشتكي، بل هي حقيقة أقولها. ولا أنكر أنني كنت أحب لو كان الأصحاب وباقي الناس سألوني: أين يُباع الكتاب؟

قال الدكتور عزت خطاب وغيره ممن يعرفونني، وممن كتبوا عن كتابي هذا، إنني أكتب كما أتكلم، بالبساطة نفسها التي أتكلم فيها، ومعظم من قرؤوا الكتاب كوّنوا الفكرة نفسها؛ لا تكلف، ولا تقعر، ولا كلمات تحتاج لشرح المنجد، ولا أفكار غامضة فلسفية ينوء بها كاهل القارئ. وبالمناسبة فمعظم من يلجؤون إلى الكتابة الغامضة، والمفردات الغريبة، والتعبيرات الأشد غرابة، معظمهم لا يستمرون بالنمط نفسه في أسلوبهم، بل هم يتقنون بعض تعابير اقتبسوها بشكل ما، وعندما تفرغ جعبتهم بعد جملة أو اثنتين يعودون إلى الأسلوب المفهوم. لا علينا، كنت أقول إنني وبشهادة قرائي أكتب كلاماً سهلاً عادياً يحاكي كلامي المحكي. وهذا شيء أحمد الله عليه. ثم دون ادعاء كاذب أو تواضع مصطنع أعلن أن هذا النوع من المقال هو ما أتقنه. ورحم الله امرأً أقر بإمكاناته.

نعود مرة أخرى إلى موضوعنا. فأنا قررت أن يكون هذا الكتاب تداعياً لأفكار، ورصداً لمحطات في حياتي، مما يمكن اعتباره تكملة للجزء الأول، أو جزءاً ثانياً له.

أحاول هنا أن أعلو فوق أحداث حياتي؛ أشاهدها وأتأملها بعين الناقد، ثم أقول عنها ما أراه مناسباً، وبدرجة ما أستطيع من تجرد. وأرجو كل الرجاء ألا أكون أضيع وقتي ووقت القارئ إن كان ما أنوي قوله هو من قبيل المعروف والمكرر، أو الذي لا يحتاجه أحد.

ولا أظنني أحتاج إلى اعتذار عن اقتحام مثل هذا المجال الذي حددته، الذي إن نُظر إليه بعين الرضا بعد أن يصبح حقيقة طبعاً امتدح وأشيد به، وإن لم يكن كذلك فإن من أسهل الأمور أن يقال: إن الكتاب خالٍ من المادة، ولا يقول شيئاً. وهذا أيضاً صحيح باعتبار أن مثل كتابي كما سترون يمكن أن يقال عنه: إنه يحوي كل شيء، أو لا يحوي شيئاً إطلاقاً وهذا بحسب نظرة القارئ.

ثم إنني كتبت كما ذكرت رواية، وأرجو ألاّ يعتبر هذا إعلاناً مني عنها، لم تجد الرواج الذي رجوته، وبعد أن جربت كتابة السيرة الذاتية وجربت كتابة الرواية وجربت ترجمة الرحلات لم يبقَ إلا الكتابة اليومية أو الأسبوعية في الصحف السيارة. وقد جرَّبت ذلك أيضاً، وحيث إنني من ذوي الدم الحار، ولمّا

كنت تعرضت لبعض القضايا الاجتماعية والبيئية وغيرها، ولم أجد صدى كما كنت أتوقع، فقد قررت أن أقلع عن الكتابة المنتظمة، ناهيك أيضاً أن عليك أن تظل تفكر ليلَ نهارَ في موضوع المقالة القادمة. وفي الحقيقة هذا ما يدفعني إلى الإعجاب بأولئك الذي يواظبون على الكتابة في الصحف، وخاصة الذين يكتبون أعمدة يومية، فهؤلاء في نظري عباقرة من نوع نادر؛ خاصة أولئك الذين يكتبون، وتكون لكتاباتهم معانٍ؛ إذ إن بعض الناس وللأسف إذا لم يجد شيئاً يقوله يخترع قضية لا وجود لها، ثم يروح يناقشها، ويدرسها، وقد يجد لها العلاج أيضاً!!

ورحم الله امرأً عرف أين تكمن قوته وفي أي المجالات ينجز. وهذا للأسف الشديد مبدأ لا نتبعه كثيراً في بلدنا. فنحن إما أن نضع الناس في أسلوب عشوائي في مواقع ليسوا مؤهلين للقيام بها، ولا تناسب أحياناً حتى اختصاصاتهم، إن كانوا ممن حصلوا على نصيب من التعليم، أو أنهم غير مؤهلين بحسب أمزجتهم وميولهم واستعداداتهم النفسية للقيام بها. وحبذا لو كان لدينا هيئات متخصصة، في مدارسنا وجامعاتنا، تراقب وتدرس ميول طلابنا، وتوجههم الوجهة الصحيحة إلى الأعمال التي أظهروا ميلاً وحباً لها أثناء دراساتهم. وهذا ما يدل عليه قول: «الرجل المناسب في المكان المناسب». وكم من

رجل غير مناسب يُكلَّف بعمل غير مناسب، وحيث إن الله تعالى قد خلق هذا الكون، وقدَّره، ورتبه على أعلى درجات الإتقان والترتيب، وجعل كل مخلوق لما يسر له، فما أحرانا أن نتعلم حتى من الحيوانات الأعجمية إن كانت أعجزتنا الحيل! انظر مثلاً إلى مختلف الحيوانات، تجد أن كل فصيلة منها جعلت لها قدرات خاصة، تتميز بها، بل وتعلن عنها كلما اضطرتها المواقف، فالأسد والحيوانات المفترسة كلها تعرف أين تكمن قوتها وقدرتها، وتعلن عنها عندما يصبح ذلك ضرورة. فالأسود تكشر عن أنيابها الحادة، وتفرد مخالبها، عندما تهاجم فريسة، أو عندما تجد أنها مهددة؛ فهي تعرف أين تكمن قوتها.

أما الخيول مثلاً والحمير أيضاً فهي إذا هددت دارت مؤخرتها لتنذر المهاجم أو المهدد بالهجوم. إن سلاحها يكمن في حوافرها، وهي تحسن استخدامها عند اللزوم. وذوات القرون تلجأ لاستخدامها عندما يتهددها الخطر، وتحني رؤوسها لتظهر قرونها لمن لم يكن قد تنبَّه إلى سلاحها ذلك.

*****

الكتابة موهبة

الكتابة موهبة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، والكتابة التي أقصدها هي طبعاً تلك التي تشدُّ القارئ وتجذبه إما بأسلوبها أو بما تحمله من محتوى، وإن كان الاثنان يكملان بعضهما بعضاً. ويبقى الأسلوب الكتابي المقروء موهبة لا يتقنها إلا من أعطي تلك الموهبة. وقد يستغرب بعض القراء أن أسلوب طرح المادة هو بحد ذاته عامل رئيس في اجتذاب القارئ حتى ولو كان لا يحوي الكثير من الجديد. وقد علّمنا أساتذتنا الكبار أن المادة المكتوبة يمكن إذا جاءت بأسلوب رشيق أن تقوم مقام العامل المعرفي؛ أي الذي يطلعك على شيء جديد لم تكن تعرفه من قبل. كما تعلمنا منهم أن الشيء نفسه يمكن أن يطرح بأسلوبين مختلفين، ومن كاتبين مختلفين، ويؤدي الغرض نفسه دون أن يُتّهم أحدُ الكاتبين بالاقتباس من الآخر. ومن البداهة أن حقول المعرفة في زمننا هذا قد أصبحت متاحة في متناول العاملين في حقولها، ولا يعيب المنشئ أن يعالج المادة نفسها التي عالجها غيره، ولكن يُعاب عليه لو «اقتبس» نص غيره كلمة كلمة.

وعلى كل حال نحن في عالمنا العربي لسنا أمة قارئة. ولا أجد أنني أبالغ بقولي هذا. شبابنا لا يقرؤون، ونساؤنا

مشغولات بشؤون حياتهن، وموظفونا منهكون بعد أن يمضوا نهارهم يشربون الشاي، ويتحدثون مع زملائهم عن أسعار الأسهم، وأخبار رياضة كرة القدم. ثم من الذي يستطيع الآن أن يأتي بكتاب يكون على درجة من التشويق، بحيث يجذب الرجال والنساء، بعيداً عن مشاهدة قنوات التلفزيون؟ فعلاً لقد تغيَّر عالمنا، تغيَّر بسرعة لم نتوقعها، ولم نستعد لها.

وأنا أعتقد أنني وجيلي من الكهول كان حظنا أحسن بكثير من حظ أبنائنا؛ إذ عشنا في زمن لم يكن هناك فيه تلفزيون أو إنترنت، وغيرها من المخترعات الحديثة. ولا أظن إلا أنني لو ولدت في هذا الزمان لكنت مثل شباب هذا الزمان، وإذا أتيح لي مثلاً أن أشاهد فلماً عن قصة لنجيب محفوظ فلماذا أضيّع وقتي في قراءة الكتاب نفسه في ساعات، وربما أيام، إن كانت مشاهدته في السينما أو التلفزيون لا تستغرق أكثر من ساعتين؟! ودعوني من حكاية متعة القراءة، فهذه أصبحت (موضة) قديمة، واتركوني أتجولْ في متاهات الإنترنت الساحرة. ومع ذلك لا أود أن أنكر أن بعض الناس، وربما كثيراً من الناس ما زالوا يلجؤون للكتاب للترويح عن أنفسهم، خاصة إذا وُفِّق الكاتب في أسلوبه ومادته.

كان من نصيب كتابي الأول «**ما لم تقله الوظيفة**» أن نال حظاً طيباً من القبول كما ذكرت سابقاً؛ ربما لأن كتب السيرة تجذب

الناس عامة؛ ولأن أسلوبي الكتابي، وكذلك مادة الكتاب لا شك كان لهما الأثر الكبير في هذا القبول، هذا طبعاً بعد توفيق الله عز وجل. والكاتب في بلادنا لا يكتب أصلاً للتكسب، ولو كان ذلك كذلك لكنت أصبحت الآن من الأغنياء؛ فقد قرأ كتابي كثير من الناس، ولكن قلة من الناس حصلوا عليه بطريق الشراء. وهذا ليس بخلاً منهم، ولكنه العرف السائد لدينا أن صاحب الكتاب هو الذي يهديه، فأنا لم أسمع مثلاً أن أستاذنا الدكتور عبدالعزيز الخويطر قد باع كتاباً واحداً من كتبه، وكذلك يمكن القول عن الدكتور غازي القصيبي؛ فهما يكتبان ويهديان كتبهما. فالعرف هنا أنك تنشر كتابك، ثم تهديه للناس. سألت مرة مسؤولاً عن المبيعات في مكتبة العبيكان، عما إذا كان كتابي يباع جيداً، أجاب بالإيجاب، ولما سألته: لماذا إذن لم أتلقَّ منهم أيَّ ريع من المبيعات؟ أجاب: إنني أنا مَن يشتري الكتاب!! وهذا صحيح طبعاً؛ لأنني طالما اشتريت منهم صناديق من كتابي، أحضرها لتكون جاهزة للتوزيع لمن يطلبها. لم أذكر إلا ربما نادراً جداً أنّ أحداً سألني: أين يباع كتابي؟ بل هم يطلبون نسخة أو أكثر. ذات مرة طلب أحدهم عشرة نسخ مرة واحدة!

أنا الآن إنسان متقاعد، وقد انخفض دخلي الوظيفي إلى النصف تقريباً، سوف أصرّ إصراراً حازماً على أن أبيع نسخ هذا الكتاب، ولا أهديها، خاصة إذا نجح. حتى إذا لم ينجح

فسوف أحاول أن أكتب شيئاً ينجح، ولا عيب في ذلك؛ فالكتَّاب في كل العالم يكتبون، ويبيعون كتبهم. انظر مثلاً إلى مؤلفة سلسلة هاري بوتر، لقد أصبحت كما يقولون أغنى من ملكة إنجلترا، فلو كانت الطوابير الطويلة التي تنتظر ساعات طويلة لتشتري كتبها، لو كانت هذه الطوابير تنتظر لتحصل على الكتاب مجاناً، لبقيت المؤلفة ربة بيت فقيرة، تحاول جهدها أن توفر لعائلتها الطعام والمسكن.

لدي خطة سرية لتأليف عمل أدبي على شاكلة هاري بوتر، وقد يتفوق عليه، وسوف يكتسح الشارع الأدبي العربي من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر؛ هل يوجد يا ترى لدينا شارع أدبي عربي؟! أهم ما في كتابي القادم هذا أنه سوف يباع فقط، ولن يهدى إلا طبعاً للأصدقاء والأهل والأقارب وأصدقائهم وأصدقاء أصدقائهم، وإلى رجال الأدب الذين أهدوني كتبهم، وإلى كتّاب الأعمدة في الصحف، وهؤلاء مهمون جداً؛ فهم لن يكتبوا عن عمل ما إلا إذا أهدي لهم، هؤلاء فقط الذين سأهدي لهم كتابي هذا!! هل بقي أحد لم أذكره في الإهداء؟!

المؤلَّف الذي أنوي كتابته موجود في رأسي الآن، وما عليّ إلا أن أشمّر عن ساعد الجد وأبدأ. على الأقل بداية الكتاب موجودة

الآن، وقد جاءتني بيسر وسهولة، دون أي مجهود مني، وهي كالآتي: هممت ذات مرة أن أستحم - يعني آخذ دشاً - ولا أعرف كلمة بديلة عن الدش هذه، وبالمناسبة أيضاً أنا أستحم أو آخذ هذا الدش كل صباح، وأحياناً كل مساء، وليس كما يعتقد ذلك الصديق الذي أرسل لي على الجوال يهنئني بعيد الفطر، ولم ينسَ أن يذكّرني أن أقوم بالاغتسال السنوي الذي أؤديه مرة واحدة كل سنة «الدش»..! - أتمنى لو أجد كلمة بديلة للدش هذا، ولعل كلمة «الشطافة العليا»، حيث يوجد بالحمام شطافة للجزء الأسفل من الجسم، أقول: لعل الشطافة العليا تكون مقبولة. وبالمناسبة انتشرت الآن، وبشكل وبائي موضة الإتيان بكلمات جديدة، يؤلفها أصحاب أعمدة الصحف، وأتمنى لو كنت جمعت بعضها؛ لأنها كلمات غريبة مهجنة، لم نسمع بها من قبل. ولكي لا أسمح لأحد أن يكون (أشطر) مني، فإنني سوف أستخدم بدلاً من الدش كلمة «السح» وهذه كلمة عربية أصيلة، تعني نزول المطر غزيراً متواصلاً، وهي كلمة استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الاستسقاء؛ ليبعث الله تعالى المطر سحاً غدقاً. لكنّ الكلمة للأسف عُبث بها عندما طلع علينا مطرب شعبي يغني عن (السّح الدّح مْبُو).

نعود من جديد إلى الحديث عن فكرة الكتاب الذي سوف أؤلفه، والذي سوف يتفوق في نجاحه على سلسلة كتب هاري

بوتر، خاصة وأن الأفكار موجودة، ولم يبقَ إلا أنْ أشدّ العزم، وأعزل نفسي عن الناس وأكتب!.

بداية الكتاب هذا حدثت بالصدفة، وهي كالآتي، وأحتفظ لنفسي بحق الملكية: ولجت الحمام، ودخلت وسط حوض الاستحمام - لا أريد أن استعمل كلمة البانيو، ولكن أين المهرب ومعظم ما نستخدمه في حياتنا من أدوات حديثة هي مخترعات غربية، عجزنا حتى عن أن نجد لها مرادفات عربية؟ طبعاً لا أنسى هنا كلمة الشاطر والمشطور وبينهما طازج، وتعني الساندويتش. وهذه أظنها نكتة، وليست صحيحة. ألطف تعليق تسمعه الآن من بعض ذوي العقول العبقرية العربية هو: اترك علوج الغرب يكدون ويكدحون، ويأتون بالجديد المفيد، ونحن نستفيد من اختراعاتهم وجديدهم دون أي مجهود من جانبنا. إنهم مسخرون لخدمتنا!!.. عاشت العقول العربية العبقرية!..

مرة أخرى أعود إلى الاغتسال، وكيف وقعت بالصدفة على بداية الرواية التي سأبدأ بها كتابي الرهيب المنتظر. وقفت عارياً تحت السحّ - أذكرك بأنه الدش - وفتحت الماء، وأمسكت قارورة الصابون السائل «الشامبو» لغسيل رأسي. كان الماء ينهمر، ومن خلال صوت الماء المسكوب سرى إلى سمعي صوت صغير رفيع سريع غاضب يشبه الصوت الذي يحدثه التماس

سلكين كهربائين رفيعين: سالب وموجب. التفتُّ يمنة ويسرة؛ لأعرف مصدر هذا الصوت الغريب، ولم أرَ شيئاً، واستمرّ الصوت يطرق أذني، وأصخت السمع بعد أن أوقفت الدش، وأيضاً تلفَّتُ ولم أرَ شيئاً، لكنني الآن أحسست أن شيئاً ينقر على أصابع رجلي. نظرت إلى أسفل، ورأيتها.. فأرة. وقد أطلت برأسها المبلول، وأذنيها المتهدلتين من فتحة البلاعة، وهي تلوّح بيديها بغضب وعصبية. ركزت انتباهي محاولاً أنْ أتأكد إنْ كان ما أشاهده حقيقياً أم تخيلا. وفتحت عينيّ وأغمضتهما مرات عديدة، وبسملت أيضاً مرات عديدة، وتلفَّتُ في كل الاتجاهات، وتأكدت أنني فعلاً موجود في الحمام، وأقف في وسط حوض الاستحمام، وأنّ ما أراه حقيقة هو فأرة، خرجت من البلاعة، وهي تنظر إلى أعلى، وتخاطبني بلهجة غاضبة نارية، وتلوح بيديها يمنة ويسرة وإلى أعلى وأسفل. أصغيت مرة أخرى، ولم أتبين ماذا كانت تقول، نعم، لقد سمعت نتفاً من كلام، وليس فقط الصوت الذي يشبه الصرير. أشارت لي بيدها أن أجلس، ولم يسعني إلا أن أسمع، وأطيع، وقد بدأ خوفي يتلاشى قليلاً، وحلّ مكانَه العجبُ الشديد الذي كاد ينقلب ضحكاً مع مشاهدة حركات الفأرة العصبية، التي تدلّ على الغضب والاحتجاج الشديدين.

جلست في الحوض بعد أن كنت قد أوقفت الماء المنهمر من الدش، وكان الصابون لا يزال يغطي رأسي ووجهي وجسمي.

أزحت الصابون عن عيوني، ودققت النظر في فتحة البلاعة، وقد عمّ السكون الكامل أرجاء الحمام. شاهدت الآن عن قرب الفأرة، وهي تمسح الصابون عن رأسها ووجهها، وتنظف أذنيها، ثم تعيد مسح وجهها بيديها، وترمش بعينيها بسرعة؛ لتطرد أي ذرات ماء علقت بينهما؛ بقيت أنظر مشدوهاً إلى الفأرة، دون أن أنبس بكلمة، وكان العجب لا يزال يمنعني من الكلام.

خرجتِ الفأرة الآن من فتحة البلاعة، واقتربتْ مني، حتى وقفتْ بين رجليّ، مسحتْ آخر قطرات من الماء عن وجهها وأذنيها اللتين ما زالتا متهدلّتين، ثم نظرتْ إليّ بتحدٍّ واضح، ورفعت يدها تهز إصبعها السبابة في وجهي قائلة: أفّ، يا ساتر، يا أخي هلكتمونا بمياهكم وصابونكم وقرفكم الذي تصبونه كل يوم فوق رؤوسنا. طوال النهار والليل وأنتم تفتحون صنابير مياهكم على الآخر، دون إعطاء أي اعتبار لكل محاولات الدعوة للاقتصاد في استهلاك المياه. ولما فتحت فمي لأقول إن ذلك ليس من شأنها، أشارت بيدها إشارة صارمة قوية قائلة: أعرف ماذا ستقول. هذه مشكلتكم يا أهل هذه البلاد، كل واحد منكم يعتبر نفسه إمبراطوراً.. لكنْ في الأمور الغلط.. أين المسؤولية؟ وأين الحس بالانتماء؟ أين الاعتبار الذي يجب أن تظهروه نحو الجماعة؟ يا رجل أنت لا تعيش وحدك.. فكّرْ بالآخرين، فكّرْ حتى بأهلك وأولادك ومستقبلهم، ساهم في بناء بلدكم.. لكن يا أخي لماذا أوجع رأسي

بمشكلاتكم وبلاويكم؟ أنا هنا فقط لأعلن لك بكل وضوح أن لي أيضاً حياتي وحريتي، ولا أسمح لأحد أن يعتدي عليّ وعلى جماعتي من الفئران.

لم أعد أعرف إن كان عليّ أن أضحك أو أن أبقى صامتاً، وأستمع لكلام الفأرة التهديدي، وهي ترفع رأسها، وتخفضه، وتحرك يديها بعصبية وتهديد واضحين.

أخيراً استطعت أن أنطق قائلاً: على كل حال إن لم تكوني جِنّيّة فأنتِ مجرد فأرة، ولو كنتِ تتكلمين، وصراخك وتهديدك هذا لن يخيفني.. ثم عن ماذا تدافعين؟ عن بلاعة؟ الآن سآتي بأي بخاخ، وأقضي عليك وأستريح. ضحكت الفأرة باستهزاء قائلة: كلامك هذا لا يستحق حتى الرد عليه، ولو لم أعرف أن عقلك قاصر، لكنت أخبرتك من أكون وأين أعيش، إنّ كل بيتك هذا - وأنا أعرفه جيداً - وحمامك المتهالك هذا، وحنفياتك التي تسرب الماء طوال اليوم دون أي اهتمام منك لإصلاحها، كل هذا ليس إلا صفراً كبيراً لما أملكه أنا وجماعتي، ونتمتع به من حياة راقية مرفهة، يستحيل على مثلك أن يطالها، حتى لو عشت ألف سنة... اندهشت من كلامها، ولم أصدّقْ للحظة واحدة أنّ للفأرة مكانا آخر غير البلاعة وبعض جحور في المنزل، وكان ردّي عليها بهذا المعنى.. ولكن - ولدهشتي الشديدة - قفزتِ الفأرة إلى صدري، وبمجرد لمسة من يدها

على جبيني، غبت عن الوعي، وعندما استيقظت، وجدت نفسي في عالم الفئران....

*****

obeikandl.com

أكاديمي أصيل

لا يزال يطلب مني الكثير من الأصدقاء والمعارف ألا أتوقف عن الكتابة وأن أحاول أن أقدم عملاً أو أعمالاً أخرى لها جاذبية كتابي الأول؛ والحقيقة بالرغم من أنني لم أعمل في مجالات متعددة إلا أن الشيء الذي أحب أن أمارسه هو الكتابة!، هذا طبعاً مع افتراض أنني أتقن الكتابة. لم أنجح في حياتي في شيء آخر، لا مشروع يدرّ عليَّ دخلاً، ولا مضاربة في العقار مثلاً الذي أثري منه عدد لا يحصى من الناس، ومنهم من لا يحسن كتابة اسمه!! بل إنني لسوء حظي - وهو في معظم الأحيان سيّئ والعياذ بالله - فقد اخترت أسوأ وقت في سوق الأسهم لأجازف في الدخول فيه. كان المبلغ متواضعاً، لكنه بالنسبة لي كان كبيراً. فقد جمعت ما استطعت من نقود، ودخلت السوق في الوقت الذي كانت الأسهم تكاد تنفجر من حمى الصراع والارتفاع غير الطبيعي - وسأبقى بقية عمري أتحسَّر أنني لم أخرج من السوق بعد أسبوعين أو ثلاثة من دخولي فيه، وقبل أن يحصل الانهيار الرهيب؛ ولا زلت أنتظر الفرج... لعل وعسى. ألم أذكر قبلاً أن الأكاديمي لا يمكن أن يفلح إلا بقراءة شيء أو كتابة شيء؟ حتى الإنترنت، الذي لم

يبق طفل في عالمنا الحديث إلا وصار عنده الكمبيوتر والإنترنت كشربة ماء. هذا الكمبيوتر يخيفني عندما أنظر إليه، وهو على مكتبي قابعاً ساكناً صامتاً، لا أجرؤ على الاقتراب منه. تغلبت على الأمية الأولى، ولحزني الشديد دخلت أمية أخرى لم أستطع الخروج منها بعد، ولا أظن أنني سأخرج.

لقد أصبح عالم الكتابة والأدب عموماً عالم ترف، لا يلجه إلا القلة القليلة من الناس. وهو أيضاً عالم يعيش فعلاً في برج عاجي، لا يصل إليه إلا من وطَّن نفسه على خوض غمار المعركة الشرسة، التي تحتدم في عصرنا هذا بين الكلمة المكتوبة التي ربما تخوض معركة حياة أو موت والتي فرّق الدهر عنها مناصريها وبين الغول المفترس، المتمثل في هذا السيل الكاسح من الاختراعات الحديثة، التي شملت كل نواحي الحياة.

إن ما يقدمه العقل البشري في أيامنا هذه كل يوم من أيام حياتنا من تقنيات جديدة غريبة وعجيبة، وما يقدمه من وسائل ترفيه وتسلية، وأيضاً معلومات يصبها الإنترنت أمام ناظريك بمجرد لمسة زر، كل هذا جعل من الكتاب مثل اليتيم على موائد اللئام. لم يعد الكتاب ذلك الرفيق الذي نشأ جيلنا لا يرى أخلص ولا أنبل ولا أوفى منه. صار مخلوقاً غريباً في عالم صار هو أيضاً غريباً، يقطنه أناس لم تعد لهم صلة به.

ولكن مع كل الأسف وكما ذكرت سابقاً، لم يعرف كثير ممن قرؤوا كتابي الأول أن لي كتابين آخرين[1]. أكرر مرة ثانية أنني محظوظ أن يعرف الناس بكتابي الأول؛ إذ هناك كتب كثيرة تكتب وتنشر وتوزع، أو يحاول أصحابها توزيعها، ولكن لا يشعر بها أحد. وهذا - دعني أسرع بالقول - ليس بالضروري لأن الكتاب فاشل أو غير مقروء، ولكن لأننا أمة لم تعد تقرأ. وقد شرحت الأسباب، والغريب أننا نتميز نحن العرب ربما عن معظم شعوب العالم، بأننا ننبهر بالأشياء الحديثة بسرعة البرق، ونتمسك بها ونتبنَّاها، وننسى حضارة وثقافة وتقاليد وعادات عمرها آلاف السنين. وإلا كيف انفرط بهذه السرعة عقد العائلة الكبيرة، التي يضمها منزل واحد، ولها رب واحد، يعترف له الجميع بالسيادة المطلقة، ويقدمون له بحب واحترام فروض الولاء والطاعة، لا يشذ عن ذلك أحد من العدد الكبير الذي يحويه البيت الكبير؟

عشنا آلاف السنين على نظام حياتي واحد، وقوانين اجتماعية يخضع لها الجميع بالبداهة. لا يخطر على بال الصغير أن يخرج عن طاعة واحترام من هو أكبر منه، ولا يخطر على بال الابن أن

(١) صدر لي قبل طبع هذا الكتاب كتابٌ رابع، هو مجموعة مقالاتي في الصحف السعودية، اسميته «كلام جرائد».

يترك بيت والده الكبير إلى منزل مستقل. يجتمع الجميع على مائدة واحدة، وينامون تحت سقف واحد.

قد يقول قائل: إن الحياة لا تبقى على حال، وإن التغيير سُنَّة الحياة، وهذا قول صحيح، ولكنه غير صحيح إذا تعدى إلى أن يتنكر أفراد العائلة بعضهم لبعض، ويأخذهم الجري المحموم وراء مشاغل الدنيا بعيداً عن أهلهم وذويهم.

والغريب العجيب أننا عشنا في هذه البلاد مئات السنين على نمط معين من التواصل الأسري، وعلى الحفاظ على عادات الأجداد وتقاليدهم، وخلال سنين قليلة انقلبنا رأساً على عقب. أسقطنا تقاليدنا وموروثاتنا التي عشنا بها آلاف السنين، بمثل السهولة التي نخلع بها ثوبنا المتسخ. جذبنا بريق الحضارة الحديثة الآتية لنا من هنا وهناك. هجرنا كل ما كان يربطنا بالماضي.

*****

وجدت نفسي دون مقدمات بالديوان الملكي. ولا أريد أن أكرر ما قلته في سيرتي الذاتية، وإن كان لا بد وأن أذكّر من لم يقرأ كتابي الأول أن الديوان كان يبحث عن مترجم للملك فيصل رحمه الله ووجدوني في جامعة الملك سعود بعد عودتي من أمريكا وتعييني مدرساً للغة الإنجليزية بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية.

مكثت مـدة من الوقت أعطي الدروس في اللغـة والأدب الإنجليـزي لطلابي في الجـامـعـة، وعندمـا يحـتـاجني الديوان للتـرجـمـة أذهـب هناك وأقـوم بالـعـمل. ثم نقلت خـدمـاتي إلى الديوان الملكي، وكان ذلك في عـام ١٣٧٨هـ. أمضيت مـا لا يقل عن سبع سنوات أعمل مترجماً فقط، وكنت بذلك سعيداً؛ إذ لم يكن لي منـافس، اللهم إلا من بعض المسـؤولين من الحـضـور، الذين كـانوا يُصـرُّون على أن يظهـروا أنهم مـتمكنون من اللغـة الإنجليزية والترجمة أكثر من تمكّني منهما. وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل بدأ التنافس الشرس فيما بعد، بعد أن رُقِّيت إلى وكيل رئيس المراسم، وتركت الترجمة كلياً أو جزئياً. وليس من المستغرب أن يحدث تنافس بين الأشخاص ذوي العمل الواحد؛ من الطبيعي أن يجتهد كل موظف ليظهر لرئيسه أنه الأجدر بالثقة، والأقدر على القيام بالعمل بما يرضي الرئيس. ويبدو أنني لا أتقن فن المنافسة، ولا التزاحم على الظهور في الصور عندما لا يكون لدي مهمة مباشرة، تتطلب وجودي قريباً من الحدث، ولأنني أيضاً أكاديمي، والأكاديميون فاشلون عموماً عندما يبتعدون عن جو الكتب والأبحاث، وعلى أي حال فقد كنت دوماً قانعاً بما أنا فيه، وكنت أبتعد قدر الإمكان عن التناحر الذي يتميز به العاملون لدى السلطة العليا.

لقد بقيت قلباً وقالباً أكاديمياً في مواجهة الحياة الوظيفية في مكان مثل الديوان. والديوان - لمن لا يعرف - عالم شاسع يعج بالرجال من كل المشارب والأهواء. ولكي تستطيع العيش والتعايش مع هذا العالم، يجب أن تكون غريزة البقاء لديك قوية. هذا إذا كنت تسعى للتقدم والتميز. وأنا كما قلت لا أتحلى بكمية وافرة من غريزة المنافسة والتزاحم والتسابق على نيل الحظوة عند أصحاب الشأن. ولا أشك أن ما وجدته في مكان عملي هو أيضاً صحيح في كل ميدان عمل. ليس من الضروري أن تكون المنافسة شريفة لا تبغي إلا مصلحة العمل، وقبل ذلك وجه الله تعالى؛ ولا أشك في أن بعض الناس يهون لديهم التمادي في الخطأ والفوضى على أن يأخذ النصيحة والتوجيه الصحيح من مرؤوس لديه. إن غريزة البقاء والحفاظ على المركز هي هدف أولئك الناس، وليذهب كل شيء آخر إلى مصيره. سبق وأن قلت وما زلت أقول إنه يجب في كل دائرة حكومية أن يكون هناك تصنيف للأعمال، وأن يعرف مثلاً الأشخاص الذين يأتون بعد رئيس العمل، أن يعرف كل منهم حقوق وظيفته، وما عليه من واجبات، وألا تُترك الأمور لرغبة أو مزاج رئيس العمل، يمنح الصلاحيات كما يبدو له، وحسب صلته بالأشخاص الذين يعملون تحت إمرته، أما يكدس العمل كله في يد شخص واحد فهو مركزية ممقوته يجب التخلص منها.

وأنا سبق لي أن سمعت من يقول عني إنني طيب وابن حلال. ومع ما في هذين الوصفين من مديح في مظهره، فأنا أعرف جيداً أنها تقال عن الشخص الذي يتعامل مع الدنيا ومع الناس وكأنهما خاليتان من العيوب والنواقص. وفي حقيقة الأمر لقد أصبحتْ كلمةُ «فلان طيب» أشبه ما تكون بسبّة وإن مبطنة.

لقد تغيرت المفاهيم في عصرنا هذا، وأصبحتَ تسمع كلمات مثل: «إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب». ولقد صرنا الآن فعلاً محاطين بذئاب من كل نوع. لقد تعلمنا منذ الصغر ما كنا نقرأ عنه في كتب القراءة عن الأخلاق الفاضلة، والشيم النبيلة، والنفوس السامية، والسلوك الفاضل، وويل لمن صدق شيئاً من هذه الفضائل الخيالية، ومن يدَّعي أنه يستغرب قولي هذا فإنني أدعوه أن يفكر قليلاً، قبل أن يرمي بالكتاب جانباً، ويسرح بخياله محاولاً أن يتذكر كم من معارفه أو غير معارفه، ممن ينطبق عليهم وصف "فلان طيب وابن حلال"، سيجد أنهم قليلون أو غير موجودين. ثم يفكر في الآخرين، ويقارن بين أعمالهم وثرواتهم، ثم يحكم على النتيجة، وأغلب الظن أنه لن يفاجأ بما يجده، بل قد لا يثير لديه أي غرابة. لقد تعودنا العيش مع أناس ممن لا همّ لهم إلا الصراع المستميت على جمع ثروات طائلة وبأي الطرق. لم يعد هذا يثير أي غرابة. تماماً مثل حكاية سلوك سائقي السيارات في بلادنا. لقد أصبح

الخطأ هو الصواب، وهو المأخوذ به. يأتيك سائق من أقصى يمينك ، ويتجه إلى اليسار أو حتى يقوم بما يسمى U TURN بالإنجليزية، ومعناها: الدوران الكامل إلى الخلف، وعلى كل الآخرين أن يعطوه أفضلية الطريق، وإن لم يفعلوا فلربما سمعوا منه ما لا يسرهم!!

طبعاً لا أقصد فيما أقول أن كل الناس هم على هذه الشاكلة، أو أنه لم يعد هناك رجال أخيار في الدنيا، فهذا ضد طبيعة الأشياء، وضد طبيعة البشر، لكن الذي يحز في كل نفس سوية، هو أن الأخيار قد أصبحوا أقلية، وأسرع لأقول: إن الذين لا يجدون أمامهم شيئاً يسطون عليه هم خارج المعادلة.

يسألني بعض الإخوان أحياناً- نِصْفَ جادّين- عن مقدار ثروتي التي كونتها طيلة حياتي الوظيفية. يحرجني السؤال، ولكن عندما لا يصدقون أنه لا توجد لدي ثروة، أشرح بما يشبه الاعتذار أن دخلي من الوظيفة يكفي لمعيشة مريحة، وأنني لا أتقن عملاً آخر يدر عليّ ثروة.

*****

الجذور

عندما قرأ سمو الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض كتاب السيرة الجزء الأول، لاحظ، والأمير سلمان قارئ ناقد ولديه قدرة هائلة على الاستيعاب وأيضاً على التذكر، أقول عندما قرأ كتابي الأول لفت انتباهه اسم والدتي وخالي وخالتي: آمنة، فهد، طرفة، وجدتي هدلة، واسم العائلة المحجّل. قال سموه: إن هذه الأسماء كلها تدل على أن عائلة الوالدة هم من البدو؛ لأنها كلها أسماء بدوية، وقد أسعدني أن أسمع منه ذلك، ولو أنني كنت أتمنى أن أعرف إلى أي قبيلة ينتمون. على كل حال القريتين تقع على أطراف بادية الشام إلى الغرب من مدينة حمص، والاختلاط بين سكانها وبين البدو الرحّل الذين كانوا في السابق سادة البادية وفرسانها كان طبيعياً بحكم الواقع. وقد حصل تزاوج كثير بين سكان القريتين والبدو من قبائل الرولة والفواعير وعنزة، ولا تزال هناك إلى الآن زيجات قليلة تحصل بين سكان القريتين والبدو الرحل.

أتيت بالنبذة السابقة عن انتماء والدتي إلى ما قد يكون قبيلة بدوية ربما لأن بعضهم هنا لا يزال يتحدث عن أصول العائلات وانتماءاتها، هذه العائلة قبيلية، وهذه ليست كذلك[1]. لا أدري من الذي أتى بهذا التقسيم، ومن الذي ابتدأه وغذاه، والغريب أنه لا يزال بيننا إلى الآن في هذه البلاد من يقف بصرامة وعناد يسند هذه التقسيمات، ويؤمن بها إيماناً عميقاً، وبعضهم مثلاً لا يمكن أن يزوج ابنته من شاب ولو كان على خلق رفيع، ومشهود له بالسيرة الحسنة، وصاحب علم وجاه، ومن عائلة كريمة إذا لم يكن ينتسب إلى عائلة قبلية! وبدلاً من ذلك قد يزوجها لرجل معدم جاهل، لا يملك جاهاً ولا مالاً ولا علماً ولا ثقافة، لكنه ينتمي إلى القبيلة الفلانية. إن هذا للأسف من سلوك الجاهلية؛ ثم لا أعلم من الذي صنَّف الناس والعائلات لقبلي وخضيري كما يطلقون على الآخرين. فكلمة الخضيري نفسها تدل على أن أولئك «الخضيريين» اختاروا أن يستقروا في مكان ما، يزرعون الأرض ويغطونها بالخضرة، ومن هنا جاء الاسم «الخضيري». وهم قد انفصلوا عن قبيلتهم بمحض إرادتهم، وهم الذين عمروا الأرض. وإلا فكيف يفضُل

(١) بالنسبة لنسب عائلة الخريجي فقد سمعت وقرأت أن جذورها تعود إلى قبيلة قحطان، وبعض مشايخ قحطان أبدوا استعداداً أن يصدروا شهادات بذلك. لكنني وغيري من الخراجة لم نر ذلك ضرورياً مع احترامنا لكل الناس، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ كما ذكر ربنا جل جلاله في الكتاب العزيز.

عليهم أناس، ربما من قبيلتهم التي هجروها، استمروا على غزو جيرانهم والآخرين، ينهبون ويقتلون ويعيثون فساداً؟ ولا أحتاج إلى أن أدلل على ما أقول؛ فهو موجود في جميع الكتب التي كتبت عن الجزيرة العربية، بأقلام المستشرقين والرحالة العرب الذين زاروا الجزيرة قبل أن يقوم مؤسس المملكة صقر الجزيرة عبدالعزيز آل سعود طيَّب الله ثراه بتوحيد الجزيرة، ونشر الأمن والأمان في ربوعها. سمعت حكاية عن رجل بدوي كان يعيش في جدة وكان يعتقد مع جماعته أن الأمور ستعود إلى الفوضى وغياب القانون بموت الملك عبدالعزيز، ولهذا فما إن أُعلن عن وفاته رحمه الله حتى أسرع أخونا مع بضعة من رفاقه من القبيليّين إلى شارع قابل في جدة حيث توجد دكاكين الذهب والمجوهرات. وانتظروا كي يبدأ النهب والسلب إلا أنه لم يحدث من ذلك شيء، وعادوا من حيث أتوا موقنين هذه المرة أن مملكة عبدالعزيز قامت لتبقى، وأن التاريخ لن يعود إلى الوراء.

طبعاً أنا هنا لا أعني مطلقاً أن أقول إن القبائل البدوية لم يكن لها منهج إلا الغزو والسلب والسرقة من بعضها بعضاً. هذا يجافي الحقيقة، حتى وإن كان تاريخ طويل من الغزو والسلب والنهب والقتل من أشخاص يمكن أن يطلق عليهم لصوص أو قطاع طرق، ومثل أولئك تجدهم في كل المجتمعات حين ترتخي يد العدالة، وتتثاءب سلطة تطبيق القانون. إنما كانت هناك مُثل ومبادئ نبيلة كان البدوي لا يتردد في التضحية بحياته في

سبيل الدفاع عنها. ولن أحتاج أن أعدد هنا تلك الفضائل؛ من إكرام الضيف، وإجارة الملهوف، والدفاع عن المحارم، والحكم بالعدل من قبل الزعماء لرعاياهم، وغيرها مما تمتلئ به كتب التراث. ونستطيع أن نضيف أيضاً أنه حتى غزو قبيلة لأخرى وسلبها كان يعتبر عندهم من ضروب الشجاعة والرجولة، وهي عادات توارثوها عبر أجيال طويلة، ولم يكونوا يرون عيباً في أن تغزو قبيلةٌ قبيلةً منافسة تقتل رجالها وتسلب أموالها؛ لأن الحياة في الصحراء قاسية ولا يستطيع البقاء فيها إلا القوي. تحكي الليدي آن بلنت التي قامت برحلة إلى الجزيرة العربية مع زوجها، تحكي عن حادثة جرت لها مع زوجها ومجموعة من البدو المرافقين لها، وكانوا في مكان قريب من مدينة النبك في سورية في طريقهم إلى الجنوب نحو حائل، هجم عليهم مجموعة من رجال الرولة عددهم اثنا عشر رجلاً، وضربوهم وأخذوا خيولهم وسلاحهم. ولكنهم لما عرفوا أن بين المجموعة امرأة - وكانت تلبس ملابس الرجال - أعادوا لهم خيولهم وأسلحتهم، وتحول سلوكهم من القسوة والعداوة إلى صداقة وحسن سلوك. تقول السيدة آن بلنت: «لقد أحببنا منظر هؤلاء الرولة الفتيان، فبالرغم من سلوكهم الخشن، استطعنا أن نرى فيهم رجالاً نبلاء. لقد شعروا بالعار لاستعمالهم لحرابهم ضدي، وأفاضوا في تقديم الاعتذارات، لقد شاهدوا شخصاً يرتدي عباءة، ولم يشكوا مطلقاً في أن لابس العباءة رجل.

أعود إلى النقطة التي أثارت موضوع البدو وسلوكياتهم، والتي أرى أنها تستحق الوقوف عندها وهي: لماذا يظن أولئك أن من ترك عادة التنقل من مكان إلى مكان بحثاً عن الماء والكلأ ولجأ إلى الأرض يعمرها يحرثها ويزرعها ويأكل من خيرها، لماذا يظن أولئك أن من فعل ذلك استحق أن يكون أقل شأناً منهم؟ ولماذا لا يزال هذا المفهوم سارياً حتى الآن ويتغلغل ليس فقط في نفوس الجهلة، بل والمثقفين من الناس، ومنهم حملة شهادات عليا، حصلوا عليها من بلاد تسود فيها الديموقراطية، ولا تعترف إلا بإنجاز الإنسان من الأعمال المفيدة؟ العقلاء الذين انسلخوا باختيارهم عن قبائلهم وفضلوا عليها الاستقرار وإحياء الأرض وبدء حركة التطور والمدنية، هؤلاء أصبح يطلق عليهم بما يشبه التحقير «الخضيريين» إنه الجهل والعقول المتحجرة التي من المفروض أن تكون انقرضت مع الدايناصورات[1].

*****

(١) أثيرت بعد أن كان هذا الكتاب قد هيئ للطبع، قضية سيدة وزوجها التي كانت تزوجته منذ مدة ولها منه أطفال؛ القضية التي أثيرت من قبل أهل الزوجة وأخوانها أن أختهم أشرف مقاماً من زوجها، وأنه لا يليق بها، وعليه يجب أن يفرق بينها وبينه - على الرغم من مضي سنوات على الزواج وإنجاب الأطفال. وللأسف وصلت القضية إلى القضاء وحكم بعض القضاة بالتطليق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

obeikandl.com

القريتين والحرب العالمية

كنا لا نزال في سورية عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية. وحيث إنها حرباً عالمية فهي تُؤثر في كل العالم، يعني كل الناس بما في ذلك والدتي أم صالح. خافت أمي رحمها الله من أن يحتل الجنود الإنجليز والفرنسيون بيتنا!! كانت حريصة على الاحتفاظ بثروتها كاملة إلى أن تنتهي الحرب بسلام. الثروة كانت تتكون من عدة قدور وملاعق نحاسية، ولتخفيها الوالدة بعيداً عن أعين الاحتلال الغاشم فقد قامت بحفر حفرة عميقة في فناء البيت الصغير ودفنت كنزها! وعندما عادت لإخراجها بعد إحلال السلام وجلاء جنود الاحتلال وجدت أن ثروتها كلها ضاعت؛ إذ أكل الصدأ كل المواعين!! إذن فقدتْ والدتي أم صالح ثروتها ولم يبقَ للعائلة شيء من متاع الدنيا. صارت الوالدة تحث صالحاً أن يخرج من المنزل، لعل الله يرزقه شيئاً عن طريق طوابير السيارات العسكرية التي كانت تُقلّ جنود الحلفاء من الإنجليز والفرنسيين، والتي كانت تعبر القريتين بطريقها إلى الشمال. كانت أرتال السيارات تعبر شوارع القرية الضيّقة طوال النهار. وكانت الفرق التي تعبُر تُعَسْكِر أحياناً في أطراف البلد. لقد ملأ الجنود وآلياتهم

العسكرية البرَّ المحيط بالبلدة، وكان الناس يقصدون مخيمات الجنود؛ بعضهم للفرجة، وبعضهم يعرضون عليهم منتجاتهم الزراعية من فاكهة وخضرة وبيض، يقايضونهم بها، ويحصلون مقابلها على نقود أو في أغلب الأحيان معلبات لحم محفوظ وغيرها من المأكولات المعلبة، التي لم يكن يعرفها الناس في ذلك الزمان. ذهبت مرة مع أخي صالح إلى المعسكر، ولم يكن لدينا شيء نبيعه أو نقايضه، واحتار صالح ماذا يفعل. وبينما نحن نلفّ وندور في المعسكر شاهد صالح عجلتين كبيرتين. أشار للعجلتين وهو ينظر إلى أحد الجنود، فما كان من الجندي إلا أن أشار بيده أن خذهما. ولكن صالحاً وقف مبهوتاً؛ إذ كيف يستطيع أن يحمل عجلتين ضخمتين وماذا سيفعل بهما.

الحرب لها أوجه عديدة وكلها حزينة، والجندي الشاب الذي يخوضها تتساوى عنده الأشياء، ولا تعود لها قيمة أصلاً لأنه يدرك أنه قد يفقد حياته كلها في أي لحظة. فذلك الجندي الذي أشار لصالح أن يأخذ (الكفرين) لم يأبه بما سيخسر بذهابهما. وقد كانت تجري حوادث كثيرة تدل كلها على اللامبالاة بالأشياء المادية، منها مثلاً أن السيارات وهي تمر بطيئة في شوارع البلدة، كان بعض الشباب يتبعونها، ويطلبون أي شيء يرونه مع الجندي أو داخل الشاحنات،

ويأخذون ما تصل إليه أيديهم. وكمثل على عدم مبالاة الجنود الشباب في زمن الحرب، وربما كان دليلاً ساطعاً أيضاً على برود الإنجليز الذين اشتهروا به، فقد ركض صبيّ خلف إحدى السيارات وطلب من الجنود الموجودين داخل حوض الحافلة أن يعطوه شيئاً، فلم يُعِرْهُ أحد اهتماماً، فما كان منه إلا أن جذب حذاء أحد الجنود الذي كان يدلي رجليه خارج السيارة وأخذه والجندي ينظر إليه وكأن الأمر لا يعنيه!.

معروف عند الإنسان الغربي عموماً أنه يحافظ ويدافع عن ممتلكاته، ولكن عندما يتوقع الإنسان الموت في أي لحظة تتغير المفاهيم.

أما نحن الصبيه فقد كان كل ما يجري يبهرنا، وكأننا في عالم خيالي. كنا نشاهد الطائرات الحربية وهي تشق السماء محلقة على ارتفاعات منخفضة، حتى تكاد تلامس أسطح المنازل؛ وكنا نؤكد لبعضنا أننا نرى طياريها، والدليل على ذلك أنّ الطيار يلبس طربوشاً أحمر! وأكثر ما كان يبهرنا من الجنود في معسكراتهم عندما كنا نرى أنهم يشعلون النار في الرمل. كنا نرى التراب مشتعلاً، ونؤكد لبعضنا أن هؤلاء الناس شياطين مردة؛ إذ كيف يجعلون التراب يشتعل، ولم يدرْ بخلدنا أنهم يصبون الكاز في حفرة يحفرونها في الأرض ثم يشعلون النار!.

*****

obeikandl.com

من نتائج البداية

لقد انطبعتْ ملامح النشأة الأولى عميقاً في كياني، وكوّنتْ أساساً متيناً في تشكيل شخصيتي. وليس في هذا شيء جديد أقوله أو غريب أنفرد به، فكل إنسان يتأثر بما يحوط به من أنماط معيشية واجتماعية في بداياته الأولى. قد تمحو الأيام بعض خصائصها، إلا أن ظروف النشأة المبكرة تؤدي دوراً مهماً في تشكيل شخصية الإنسان. فأنا مثلاً إلى الآن لا ألقي بالاً إلى ما تراه زوجتي وأولادي شيئاً مهماً وأساسياً لا يمكن تجاهله.. ولأضرب مثلاً: عندما بنيت بيتي في الرياض، لم ألتفت مطلقاً إلى شكل البيت؛ من جمال التصميم، وما يسمى الديكور عند اختيار الفرش. طبعاً أسرع فأقول إنه لم تكن لدي القدرة كي أتحكم في نوعية المفروشات، ودرجة فخامتها، وماذا يتماشى مع ماذا، ولا إمكانية توزيع قطع التجميل (الديكور) مع باقي قطع الأثاث، ولكن حتى لو سلمنا بأن هذا لم يكن ضرورياً، ولا مطلوباً، فإنني لم أحاول حتى أن أدرس خريطة المنزل مع المهندس الذي صممها، وقبلت تقريباً بما عرضه؛ لأنني أجد أن أي شيء تقريباً - طالما تتوافر فيه أساسيات ما أحتاجه - يكون مقبولاً لدي. وإلى الآن لا أجد معنى كبيراً للتفاصيل التي يبديها الأولاد ووالدتهم، عندما يناقشون تناسق

الألوان والأشكال التي يصرُّون عليها كلما حدث أن أصلحنا من شأن غرفة أو جانب من المنزل، وبطبيعة الحال لا أجد أي حرج في الاعتراف بأن زوجتي أم نزار لا تثق أقل ثقة في ذوقي إذا حاولت الاشتراك في النقاش فهي سرعان ما تقترح عليَّ أن أشغل نفسي بأي شيء آخر، وأترك الأمر لها وللأولاد.

لقد قلت في بداية هذا الفصل إن الظروف المعيشية والاجتماعية التي تحيط بالفرد منذ البداية تؤدي دوراً أساسياً في تشكيل شخصيته؛ ولا أقصد أن هذا يتعدى إلى تشكيل العامل النفسي أيضاً، لأن الإنسان قد يولد قنوعاً راضياً باليسير البسيط حتى ولو كان ينحدر من سلالات الملوك والأرستقراطيين. والأمثلة كثيرة لأناس ملكوا الدنيا ولكنهم عاشوا حياة الزهد والبساطة، ولا أقصد فقط المسلمين الأوائل الذين تربوا على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. خذ مثلاً الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله. لقد كان أنموذجاً رائعاً في الزهد والترفع عن بهرجة الحياة وملذاتها. كان يسكن في منزل بسيط، وكان أثاث منزله أبسط من بيته. وكان يستعمل سيارة واحدة ويرفض أن تبدل، وإن كانت أحياناً تستعصي على الحركة. أتوا له بسيارة ذات مرة، وهو في مكتبه، ولما خرج من المكتب ورأى السيارة الجديدة، نظر إليها وسأل: مَن الذي أتى بالسيارة الجديدة؟ وهل كان ذلك بأمر

منه؟ ولما أجابه بعضهم: إن سيارته أصبحت قديمة، أجاب بأنه لم يشكُ قِدَم سيارته، وطلب منهم أن يعيدوا له سيارته القديمة، وقد كان. إن مثل هذا النمط السلوكي لا بد وأن يتطلب مبادئ يؤمن بها صاحبها.

ما ينطبق على نظرتي للمنزل وفرشه وديكوره أو عدمه، ينطبق بالتالي على تعاملي مع باقي متطلبات الحياة. ولا غرابة في هذا؛ لأن الكلية الشخصية تأتي غالباً منسجمة مع بعضها بعضاً، وإلا كان الإنسان غير سوي. فأنا مثلاً لا يهمني ماذا آكل من طعام، أو ألبس من ثياب، طالما أن الضروريات متوافرة. هنا طبعاً كالعادة تقف لي أم نزار بالمرصاد؛ فهي التي تقرر متى يحين الوقت لتفصيل ثياب جديدة للصيف والشتاء، ولهذا لا ينقصني - والحمد لله ثم الشكر لزوجتي - القدر المطلوب من الأناقة!.

أذكر حينما ذهبت إلى القاهرة للدارسة، وجاءت امرأة لتتولى تنظيف الشقة، وتطبخ الطعام. جاءتني في اليوم الأول سائلة: ماذا أريد من طعام، لم أعد أذكر تماماً ماذا طلبت منها أن تطبخ، إلا أنه لا يخرج عن نوع خضار وأرز، وربما بعض الفاكهة. عندما جاءتني في اليوم الثاني تسألني السؤال نفسه، كان جوابي لها أن تختار هي ما تطبخ وما تحضر من طعام، ولا تسألني بعدها أبداً. وهكذا كان.

لكن تبقى في الوجدان انطباعات وسلوكيات ثابتة لا تتغير مهما تغير الزمن وتبدلت الأحوال.

ولأضرب مثلاً على ذلك. فأنا عندما رحلت إلى مصر للدراسة في منتصف الخميسنيات من القرن الماضي كانت القاهرة مدينة جميلة، نظيفة ساحرة رومانسية، وأحببتها من كل قلبي. لا أزال إلى اليوم كلما زرت مصر أتوقع على الرغم من صدمة الواقع أن أجد القاهرة هي تلك المدينة الرائعة التي كانت. كذلك كان الجنيه المصري في ذلك الوقت عملاقاً شامخاً يضرب له تعظيم سلام. كان الذي يملك عشرة جنيهات يعتبر ميسوراً أما الثلاثين جنيها التي كنا كطلبة نتسلمها فكانت تجعلنا أغنياء. لا أزال إلى اليوم أحمل احتراماً كبيراً للجنيه المصري ولم أقتنع بعد أن الأيام أضنت به ولم يعد ذلك الأداة النقدية الفعالة! ولهذا فأنا أعاني نفسياً إذا دخلت مطعماً في فندق كبير هذه الأيام مع عائلتي ووجدت أن فاتورة العشاء زادت على الخمسة آلاف جنيه!!

ومن الأشياء التي كنت أجلها في السابق أيضاً العطر - الكولونيا-!.

كنت أرى أن قزازه الكولونيا شيء نفيس جداً لا يتأتى لكل من هب ودب. لا أذكر الآن متى صار عندي قزازة كولونيا لكنني أعرف أنني فيما بعد أصبحت كما يقول المثل (بدوي وطب في

تمره) ولا أعني مطلقاً التقليل أو الغمز في البدوي، بل هو مجرد مثل يقال. لدي الآن طاولة مليئة بكل أنواع الكولونيات والروائح العطرية. لكن كما قلت تبقى مع الإنسان وجدانياته وتجاربه الأولية ولا تموت. فأنا مثلاً عندما تفرغ إحدى القارورات من محتواها ولا يعد بخاخها يصل إلى بضعة نقط لا تزال في قعرها، عندما يحصل هذا لا أرمي القارورة بل أجمعها مع أخريات مثلها ثم أتربع أرضاً وأحضر عدة الشغل وهي مفكات وزراديات وأبدأ في إزاحة الأغطية المعدنية المثبتة على القوارير كي أحصل على آخر نقطة من العطر!! وقد أخرج نتيجة لهذه العملية بجرح أو أكثر في يدي وأصابعي!!

إن كل إنسان عادي يمر بمراحل عديدة في حياته، ليس فقط من الناحية البيولوجية، بل أيضاً من تطوره الذهني والعاطفي، وما تكون النفس مطية له من إحساسات متباينة، ومراحل حياتية تتفاوت فيها تلك النفس في تعاملها مع ما حولها من أناس وأحداث. كما أن النفس الإنسانية تتغير وتتطور في مراحل حياة صاحبها، ونظرته إلى الحياة، وتعامله معها في المراحل المختلفة؛ فالصغير له عالمه المحدود الذي يعيش داخله، ثم مع نموه تتغير معالم ذلك العالم حسب سنوات نموه. وعندما يصبح الصغير شاباً تتغير نظرته إلى الحياة وتتسع آفاق تطلعاته، وهكذا. ويمكن أن نقسم الحياة بعد الطفولة عند معظم الناس إلى ثلاثة أقسام هي على وجه

التقريب: المرحلة الرومانسية، ثم مرحلة العقل، وأخيراً مرحلة الاستسلام للأمر الواقع. وهذا التقسيم قد لا ينطبق تماماً على الجميع؛ فمن الناس من قد لا يمر بمرحلة الرومانسية، بل قد يعبر مباشرة إلى مرحلة العقل، ومنها إلى المرحلة الأخيرة، ولكن معظم الناس على ما أعتقد يمرون بهذه المراحل الثلاثة بعد الطفولة.

واقع الأمر أن مرحلة الشباب هي مرحلة الرومانسية التي ذكرتها. قد لا نجد كلمة عربية بديلة مناسبة، ولكن ربما تكون كلمة «العاطفية» هي القريبة من المعنى. يشعر الشباب في مرحلة المراهقة والشباب بالعاطفة المشبوبة؛ فهم يصبحون بحاجة إلى الإعلان عن أنفسهم عن طريق التقرب من الجنس الآخر. إنه شيء فطري، بل إنه في هذه السن الشبابية تتكون لدى الشاب والفتاة أيضاً قدر كبير من العواطف التي تبحث عن وسيلة للتعبير عن نفسها. لم يشرح لي أحد أبداً في مقتبل عمري شيئاً عن الحب أو الجنس، بل إن مواضيع مثل هذه تعتبر عندنا من المحرمات، ولا يخوض فيها الآباء والأمهات. لكنني لم أحتجْ لمساعدة أحد عندما حان الوقت ليفتح قلبي على عالم وأسرار الميل الفطري للجنس الآخر. وعندما بدت روحي ودون توجيه من أحد تبحث عن نصفها الثاني، كان ذلك أمراً حتمياً لا بد أن يحدث. تتعطش الروح السوية

إلى الالتقاء بنصفها الثاني، وتتفتح براعم العاطفة في الوقت المناسب، ولا تروي تربتها وتبقى مزدهرة إلا عندما تجتمع الروحان. وإلا تذبل البراعم وتتساقط، ويذبل عودها ويجف.

حبذا إذن والحال هذه أن يتبرع الأبوان أو أحدهما في الوقت المناسب من أعمار أبنائهم، بإعطائهم شيئاً من التوعية عن بعض حقائق الحياة التي سيواجهونها. لكنني لست على يقين أن الأبناء في أيامنا هذه التي تنهمر علينا فيها كل أنواع المعرفة المطلوبة وغير المطلوبة والمحظورة وغير المحظورة، أقول لست على يقين أن أبناءنا يحتاجون منا في أيامنا هذه إلى ذلك النوع من التوعية.

قرأت أو سمعت مرة نكتة أو طرفة وهي أن طفلاً سأل أمه عن كيف أتى إلى هذه الدنيا. وأجابت الأم إن طائراً جميلاً لونه أزرق جاء به إليه.

استمع الطفل لما قالت وهو صامت ثم بعد قليل قال: «هذا غريب، لم أكن أعرف أنه في أيامكم لم يكن هناك ممارسة جنس»!.

وأنا لا أشك أن أهم المراحل في حياة الرجل هي المرحلة الثانية، وهي مرحلة العقل؛ لأنها مرحلة تكوين الشخصية، أو هي نتاج المرحلة السابقة؛ إذ يحين موعد القطاف. هي المرحلة التي يواجه بها المرء الحياة؛ يعمل ويكد ويكدح ويبني مستقبله،

وهي المرحلة التي يكون الرجل فيها أشد ما يكون قوة وعنفواناً، فهي مرحلة البناء والتكوين، ومرحلة صراع من أجل إثبات الذات، يختبر فيها الرجل عوده، وفيها تكون لديه القدرة على تحمل الصدمات والخيبات، وأيضاً السعي للنجاح وتحقيق الأهداف، وبناء قاعدة يقف عليها، ويستظل بظلالها هو ومن يلوذ به. ومن حكمة الله تعالى أن جعل الرجل في تلك المرحلة أقوى ما يكون في حياته. فأنا الآن أنظر إلى الوراء وأتعجب أحياناً: كيف كان بمقدوري أن أقوم بما قمت به في المرحلة الوسطية هذه التي أتكلم عنها، أنا لا أدعي طبعاً أنني أتيت بأعمال خارقة، ولكني أقول: إنه لا يمكنني الآن أن أتحمل المشاق ولا الجهد والإصرار الذي كنت أتحلى بهما عندما كنت في تلك المرحلة من عمري.

ولأضرب مثلاً بسيطاً عما أعنيه: أثناء دراستي العليا كنت أمضي أحياناً أربعاً وعشرين ساعة دون نوم؛ لأتمكن من إنجاز بحث كان عليَّ أن أنجزه في وقته المحدد تنفيذاً لأوامر المُدَرِّس المشرف على دراستي.

هل بمقدوي الآن أن أفعل ذلك؟ لو طلب مني مثل هذا الواجب الآن، فإن جوابي سيكون أنه لم يعد في العمر بقية تستحق أن أنفذه، عدا أنه يصعب تحقيقه جسدياً.

شاهدت مرة في التلفزيون المصري مشهداً صغيراً كوميدياً، يشرح بطريقة طريفة مراحل العمر الثلاثة التي ذكرتها: يظهر أحد الممثلين الشباب في مرحلة الرومانسية، وبجانبه عروسه الشابة، وهو يكيل لها كلمات الحب والغزل، ويتغنى بجمالها الأخاذ، وبشدة ولهه بها، كان المشهد في أحد المطاعم، والزوجة الشابة منهمكة في اختيار طبقها المفضل، وكان العريس المغرم يحثها على طلب كل ما في المطعم من أطايب الطعام، وهو لا يتوقف عن إطراء جمالها، ومدى حبه الكبير لها، ثم يتغير المنظر فجأة وقد مضى على زواجهما بضع عشرة سنة، ووصل الزوجان إلى منتصف عمرهما - مرحلة العقل - وهما في المطعم نفسه، والمرأة تنظر في قائمة الطعام، ويسأل الزوج عن أنواع الطعام لدى المطعم، وبعد أن يعدد النادل أنواع الأطباق، والزوج أثناء كل ذلك مُكَشِّر الوجه، لا يتبادل كلمة واحدة مع الزوجة، التي كان يهيم بها منذ سنوات، بعد كل ذلك، وبعد أن عدد النادل كل الأصناف، يطلب منه الزوج أن يأتيهما بصحنين من السلطة فقط، ولا شيء غير ذلك. أخيراً يظهر الزوجان في المنظر الثالث والأخير، وفي المطعم نفسه، وقد بدا عليهما الكبر، وتقوس ظهر الرجل، وانتابته الأمراض، وخبا عنفوانه، وزالت قوته وجبروته، ووهن صوته. وبعد أن يعدد النادل أنواع الطعام كالعادة يطلب الزوج

منه طبقين من (الشربة) التي يستطيعان هضمها، وبصوت واهن يسأل زوجته إن كانت لم تنسَ أن تحضر له أدوية السكري والضغط والروماتيزم!.

على الرغم من أن المنظر الفكاهي لحياة الزوجين لم يأخذ إلا دقيقة أو دقيقين، إلا أنه صوَّر باقتدار حياة زوجين من الناس، تمثل حياة آلاف غيرهم ممن ساروا ويسيرون على الطريق نفسه، ويبدؤون كما بدأ هذان الزوجان، وينتهون لمثل ما انتهيا إليه. ذلك (الاسكتش) الصغير الذي شاهدته ذات يوم على إحدى شاشات التلفزيون المصري، كان من أجمل وأصدق ما شاهدته يُمَثَّل على الشاشة. لقد تمكن من تصوير حياة كاملة في ثلاثة مشاهد قصيرة وبضع كلمات اختصرت حياة امتدت لعشرات السنين.

*****

القاهرة: بداية الانطلاق

يا الله! ما أسرع الأيام، وما أسرع ما تمضي بنا الحياة.

منذ مدة بسيطة فقط من عمر الزمن كنت شاباً يافعاً تخرَّجت من الجامعة وعدت من القاهرة مشمِّراً عن ساعد الجدِّ، أسير شامخاً وكأن الدنيا خلت من قاطنيها إلا مني، وأنها تنتظر وصولي فقط لإصلاحها.

لم يكن لدي شك أنني سوف آتي بما لم تستطعه الأوائل!

كنت ضمن مجموعة من الشباب تزاملنا سنين عديدة في مراحل السنين الدراسية المختلفة في المملكة حتى انتهى بنا المطاف في القاهرة.

كانت القاهرة في تلك الأيام، الخمسينيات الميلادية، هي الوجهة التي نقصدها من المملكة للدراسة الجامعية. ألم أذكر في البداية أن الحياة مرت بسرعة البرق؟ وقد أصبحت أنا وأولئك الزملاء كهولاً أو ما بعد الكهولة؛ إذ الكهل هو الذي تجاوز الخمسين كما يقول المنجد، أما نحن فقد تجاوزنا الخمسين بسنين، لا أحرص ولا أود أن يحرص القارئ على معرفة عددها، وصلنا القاهرة وكانت لا تزال تعيش أواخر عصورها الذهبية الجميلة. كانت مدينة كأنها حديقة نظيفة

تشق وسطها الشوارع الأنيقة التي تقوم على جوانبها المحلات التجارية الضخمة الفخمة التي تقلَّد في واجهاتها وفيما تبيع أرقى المحال الباريسية. كانت الشوارع تتلألأ على جوانبها الثريات الكهربائية تحملها أعمدة ضخمة شاهقة، شيء لم نعرفه ولم نعهده، اللهم إلا ما كنا نشاهده من الأنوار الكهربائية الساطعة في الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

انتقلت إلى القاهرة من المدينة المنورة التي كنت أسكن فيها مع عائلتي في حارة المحمودية. والمحمودية حي يتكوَّن من مجموعة من الأزقة الترابية الضيقة، تبدأ من نهاية المناخة الجنوبية، وتنتهي بعد بضع عشرات من الأمتار بحوائط تفصلها عن الطريق المؤدي إلى قباء. كانت تلك الأزقة شديدة الظلام في الليل لدرجة أنك قد تصطدم وأنت تسير فيها بأحد جدران المنازل الصغيرة إذا لم تفتح عينيك جيداً!

لم يكن بيت المدينة المنورة في المحمودية أكبر بكثير من بيت القريتين العتيد. كان حسب المقاييس السائدة في ذلك الوقت وأظنها انتهت الآن نصف مخزن لا أكثر. تدخل من الباب لتجد على يسارك جلسة صغيرة عرضها حوالي مترين وطولها ربما ثلاثة أمتار، وفي صدر المنزل غرفة كانت هي صالون الاستقبال، وأمامها بيت البئر. كان يوجد بئر ماء في كل

منزل من تلك المنازل الصغيرة في ذلك الوقت. أما الدور العلوي فكان أيضاً غرفتين: أمامية للجلوس والنوم في الليل، والخلفية وتسمَّى «مؤخر» تخزَّن فيها حاجيات الأسرة. كان هذا كل البيت الذي سكناه عندما عدنا من القريتين إلى المدينة المنورة. بعض من سمعوا عن كتابي الأول «**ما لم تقله الوظيفة**» وقبل أن يقرؤوه تساءلوا عما يمكن أن يحكيه «ولد الخريجي» عن نفسه وحياته قبل الوظيفة، وهو الذي ينتسب إلى عائلة من أغنى عائلات المدينة. ولم يدر بخلدهم أنه ليس بالضرورة أن كل من حمل لقب عائلة ما يكون بالضرورة واحداً من أغنيائها.

كان أهلي والدتي وأخي وأخواتي يذهبون لزيارة جماعتنا آل الخريجي، وبدلاً من أن يزوروا ويعودوا إلى دارهم كانت الزيارة تستغرق الأسبوع أو أكثر أحياناً، إلا أنا كنت أصرُّ دائماً على العودة إلى البيت في المحمودية، كنت أعود بالليل البهيم ولا أكاد كما ذكرت آنفاً أرى طريقي في تلك الأزقة الضيقة. كنت أصل البيت وأدخل وأنا أعرف مسبقاً أين سأجد الأشياء التي أريدها. الكبريت والفانوس ثم أحمل فراشي على رأسي وأصعد إلى السطح؛ لأن الوسيلة الوحيدة لاتقاء الحر الشديدة هي النوم على السطوح، وإن كانت أشعة الشمس الحارقة توقظنا بسياطها الملتهبة منذ لحظة سطوع الشمس، فأعود أحمل فراشي على رأسي كما يفعل كل الذين يلجؤون للسطوح

وكانوا كل الناس، وأسرع إلى ظل الغرفة لأكسب ما أستطيع من الوقت في النوم قبل موعد الاستيقاظ الأخير الذي أنهض بعده للذهاب إلى السوق لشراء حاجيات اليوم من طعام وغيره، ثم أعود وأستعد للذهاب إلى المدرسة.

لقد كانت نقلة كبيرة تلك التي أخذتنا من حوارينا وقرانا من المملكة إلى القاهرة مما جعلنا نؤمن أن مصر هي أم الدنيا فعلاً.

أكرر أمام أصدقائي دائماً أن أجمل أربع سنين في حياتي هي سنوات القاهرة. ولطالما لمت نفسي وقسوت على تصرفي المتسرع عندما أنهيت الدراسة في أربع سنين فقط. كنت أغبط إن لم أكن أحسد الذين لم ينهوا دراساتهم في أربع سنوات. ولن أتقبل نقداً من أحد على ما أقرره هنا، خاصة عندما أذكِّر من ينتقدون قولي هذا كيف كانت الرياض في ذلك الزمن البعيد وكم كان عمري يومئذ!

إذا كان للطلاب السعوديين مجتمعين عصرٌ معين يسمونه العصر الذهبي فإن حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي وربما إلى السبعينيات أيضاً كان ذلك العصر الذهبي، وكانت القاهرة مركز ذلك العصر وكان كل الذين ينهون دراساتهم الثانوية يتوجهون مباشرة إلى القاهرة.

كانت القاهرة هي المركز الرئيس الكبير لابتعاث الطلبة السعوديين بجميع تخصصاتهم، وكانت مناطق الدقي والعجوزة

القريبة من جامعة القاهرة تعج بالطلبة، وكنت تجد في أغلب العمارات في هاتين المنطقتين ومنطقة العجوزة والنيل كذلك شققاً يسكنها طلبة سعوديون. وأيام الدراسة على أيّ حال هي الأسعد في حياة الإنسان؛ لا هموم ولا مشكلات ولا مسؤوليات كالتي عرفناها فيما بعد وناءت بها ظهورنا. كل الذي على الطالب أن يفعله هو أن يحضّر جيداً للمحاضرة ويذاكر جيداً. والطالب السعودي حقيقةً كان يعيش في بحبوبة قصرت عنها حياته بعد التخرج وتسلُّم المرتب، الذي كان يتراوح ما بين ٩٠٠ و١٢٠٠ ريال.

كنا في مصر نتسلّم ثلاثين جنيهاً شهرياً، وهذه الثلاثون لمن لا توجد لديه فكرة عن مستوى الحياة في ذلك الزمن تجعل منا أغنياء. لقد وجدت أنا شخصياً أنني كنت أعيش في بحبوحة من العيش قصَّرت أن تعطيني مثلها الريالات الألف والمائتان، التي جلستُ أياماً إن لم تكن أسابيع وأنا أساوم مسؤولي وزارة المعارف وخاصة وكيل الوزارة آنذاك الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ رحمه الله أن أحصل عليها كما بينت ذلك في كتابي الأول «ما لم تقله الوظيفة». كنت أتيه إعجاباً بنفسي؛ لأنني خريج لغة إنجليزية، التي كانت تلك الأيام عملة نادرة، وكلما عرضوا عليَّ منصباً بتسع مئة ريال أرفع حاجبي استنكاراً من أنني لا يمكن أن أنحدر إلى مستوى الذين قبلوا

بهذه المرتبة قبلي وأنا خريج اللغة الإنجليزية! ولكي لا يظن من يقرأ هذا أنني كنت فعلاً زاهياً بنفسي، أقول إنه لم يكن هناك زهو ولا يحزنون، وإنما المسألة كلها أن زملاء قبلي حصلوا على الدرجة الرابعة، ولم أود أن أكون أقل منهم. ولا أدري إلى الآن إن كان الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ اقتنع بحيثياتي أم إنه فقط ملّ من شكلي، وهو يراني كل صباح أجلس أنتظره في مكتبه الكبير، أتخذ لنفسي كرسياً بآخر المكتب الواسع قبالة الشيخ حيث كان يراني كلما رفع نظره عن معاملاته. المهم أنه ذات صباح ولج إلى مكتبه وكالعادة كنت أنتظره فأشاح بيده دون أن ينظر إليّ قائلاً: اذهب إلى شؤون الموظفين، وبإصرار الشاب المندفع سألته إن كانت المرتبة الرابعة؟ وردّ بإيجاز: «رح وبس». وعملت في الدرجة الرابعة، في تلك الأيام كانت المرتبة الأعلى هي الأصغر في التسلسل. يعني الرابعة أعلى من الخامسة وهكذا.

تمر الحياة كالحلم. ما أقصر عمر الإنسان! أو لعله يراه قصيراً عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة التي أمر بها الآن وزملائي الذين كنا ذات يوم وكأنه أمس نمرح في ردهات كلية الآداب، جامعة القاهرة. كنا نمتلئ حيوية ونشاطاً وآمالاً عراضاً، ولم نكن نفكر أبداً في محدودية الحياة. مثل هذا التفكير يبدأ بعد سن الشباب بسنوات عديدة، ربما بعد الأربعين أو في سن الأربعين تصحو فجأة، وتجد أنك وصلت

الأربعين من عمرك ، وإن كنت لا تزال في قمة الحياة والقوة والعطاء، إذا كنا نزيد عليها كلمة «العطاء» التي أكرهها. نحن نقول عن بلدنا إنه بلد «معطاء»، كلمة سمجة دأب على تكرارها إناس سمجون - ليس لأن البلد «معطاء»، فهذه نعمة ونحمد الله كثيراً عليها، لكنها سمجة في أننا جميعاً ننتظر هذا البلد «المعطاء» أن يعطينا شيئاً دون أن نفكر نحن في غالب الأحيان نعطيه في المقابل أي شيء. كم واحداً منا عندما يدخل غرفته في الليل لينام يسأل نفسه: ماذا أعطى بلده؟ وما هي الخدمة التي قدمها لبلده؟ إن كان هو يحسب مكاسبه فقط من بلده دون مقابل منه فهو ببساطة لا يستحق شرف المواطنة أصلاً.

وعلى أي حال لقد مضى الوقت الذي أستطيع فيه أن أعطي شيئاً لبلدي. فهو الآن يعطيني مرتَّب التقاعد مكافأة لي على خدمتي في الحكومة طوال أكثر من خمسة وأربعين عاماً. لقد تقاعدت الآن ولم يعد بإمكاني أن أسدي أيَّ خدمة لبلدي، هذا إن كنت قد أسديت له أي شيء أصلاً عندما كنت على رأس العمل! ولست هنا بمجال حساب سنوات عملي في الدولة، فهي سنوات مرت كما تمر السنون على أي موظف، أعني لم أكن أقوم بأي عمل خارق أو غير خارق، كنت أعمل ما يراد مني عمله، خاصة وكما ذكرت في مكان ما من هذا الكتاب أنني لم أكن رئيس العمل لأحدث فيه جديداً أو تطويراً. أما

عملي الذي يعطيني بعض الرضا عن نفسي فهو الكتب التي ألفتها؛ كتابي «السيرة الذاتية» الذي كان بمقياس نجاح الكتب في العالم العربي ناجحاً، فهو كتاب جيد ومقروء، ثم الرواية، والكتاب المترجم عن رحلة لمستشرق دانماركي إلى الجزيرة العربية، ومجموعة من مقالاتي في الصحف المحلية جمعتها في كتاب حتى لا تضيع. هذا كل ما أنجزته، أما الوظيفة فلم يكن بها أي إنجاز. طبعاً بين يدي هذا الكتاب الذي أقوم بكتابته الآن، والذي - إذا كنتم الآن تقرؤون هذا الكلام - أكون قد أنجزته وضممته إلى مكتبتي المتواضعة. هناك شيء آخر بدأته ثم تركته، وهو أقرب إلى مسلسل اجتماعي، مثل تلك التي تعرض في التلفزيونات العربية في رمضان. ابتدأته فقط ولا أدري إن كان سيرى النور كما يقولون أم يبقى بين أوراقي الكثيرة التي ستأكلها العتة قبل أن تتاح لها فرصة الخروج إلى الهواء الطلق.

لم يبق الآن من القاهرة التي عرفتها في الخمسينيات إلا بعض ذكريات متناثرة هنا وهناك، لكن حُبَّ القاهرة يبقى ثابتاً، قوياً، متدفقاً، متجدداً. حتى ونحن نسافر إلى مصر ثم نعود، وفي تصميمنا أننا قد لا نذهب ثانية. لكننا لا نلبث أن يأخذنا الحنين إلى عاصمة مصر العتيدة. كيف لا وهي ليست فقط

مدينة الألف مئذنة بل هي بلد الألف وجه ووجه! لا توجد نهاية لما يمكن أن تفعله وتراه في القاهرة ومصر عموماً، والطعم الذي تتميز به هذه المدينة لا يضاهيه طعم آخر في العالم أجمع، هناك أشياء كثيرة تستفز المسافر إلى مصر إلا أننا يمكن أن ندخل ذلك في تصنيف البهارات التي تضاف إلى الطعم فتزيده نكهة.

كثير من الصداقات التي بدأت وامتدت بين شباب جيلنا والذي قبلنا وبعدنا ابتدأت في القاهرة، ولا تزال قوية ثابتة. وعلى الرغم من أن كلاً منّا صارت له حياته ومشاغله ومشكلاته، إلا أننا عندما نلتقى، تختفي فجأة كل الأيام والسنين، وتنبعث من جديد الزمالة والصداقة التي ابتدأت في مصر. وأرى أنها مناسبة طيبة أن أذكر بالخير والثناء زميلنا معالي الدكتور أحمد محمد علي مدير البنك الإسلامي على دعوته السنوية في أول أربعاء من كل رمضان، والتي يدعو فيها خريجي مدرسة طيبة الثانوية. ولكننا نكتشف أننا جميعاً من خريجي القاهرة، وما أكثر المفاجآت التي تأخذنا عندما نتقابل. تخيل أنك لم تر شخصاً منذ خمسين سنة، ثم تراه فجأة أمامك في منزل الدكتور أحمد. كان ذلك الشخص لا يزال في مخيلتك هو الشاب المتدفق حيوية والممتلئ حياة، وفجأة ترى أمامك شيخاً ابيضّ شعره، ووهن عوده، وتهدج، وهو يحيّيك، وأنت وهو غير متأكدين أن هذا هو فلان، إلى أن يتجرأ

أحدكما ويسأل السؤال المنتظر: فلان؟ يا الله كيف الحال يا رجل؟ وأين دنياك الآن؟ وماذا فعلت بك الأيام؟ الأيام.... أجارنا الله وإياكم من جورها.

*****

obeikandl.com

في بلاد الإنجليز

أمضيت سنتين في الرياض؛ حيث عُيِّنت بعد تخرجي مباشرة مفتشاً للغة الإنجليزية بوزارة المعارف. كانت الوظائف في تلك الأيام سهلة متيسرة، وكان المتخرج في ذلك الزمن الجميل يكاد يختار أي وظيفة يريدها، حتى ولو لم تكن في مجال تخصصه؛ لأن كل الوزارات والمرافق الحكومية كانت تبحث، بل وتنافس بعضها بعضاً لجذب الشباب المتعلم.

عملت سنة واحدة في التفتيش، ثم انتقلت إلى جامعة الملك سعود، وكانت حديثة العهد لم يمضِ على افتتاحها سوى عامين، وكنت أنا ضمن المجموعة الثانية من المعيدين، وكان من الذين عينوا معي الدكتور منصور الحازمي، والدكتور محمد الشامخ، بينما كان الدكتور رضا عبيد، والدكتور عزت خطاب أول شخصين سعوديين عُيِّنا معيدين في الجامعة. والاثنان زميلاي؛ حيث تخرج كل الذين جاء ذكرهم من جامعة القاهرة في عام ١٩٥٨م.

عادة يمكث المعيد سنة واحدة في الجامعة ثم يبتعث، وهكذا سبقنا رضا عبيد وعزت خطاب في عام ١٩٥٩م، ثم لحقنا بهم نحن: منصور الحازمي، ومحمد الشامخ، وأنا في عام ١٩٦٠م.

ذكرت أن الأيام الجميلة انتهت بنهاية الدراسة في مصر، ويجدر بي أن أدلل على ما أقول. لم تكن الحياة في إنجلترا سمناً وعسلاً. فهذه بلاد يغلب على أهلها الحذر والتخوف من الأجنبي، خاصة إذا لم يكن لون بشرته ناصع البياض. التفرقة العنصرية عند الإنجليز، خاصة في ذلك الزمان، كانت أشد مما هي مثلا في الولايات المتحدة، خاصة قبل ثورة مارتن لوثر كنج وزملائه من السود الذين سعوا حثيثاً، وجاهدوا وضحوا كثيراً من أجل حصولهم على المساواة أو ما يشبه المساواة مع الإنسان الأبيض، والأمريكان واضحون في عنصريتهم الموجهة ضد الإنسان الأسود، بينما نجد عنصرية الإنجليز تتخطى العنصرية الأمريكية لتشمل كل الناس الملونين. أي إنسان غير أبيض نقي البياض هو محل شك وخوف عندهم. وهذا ليس فقط في عاصمتهم لندن، بل في باقي مدنهم وأريافهم. لقد ذهبت في دراستي إلى ليدز، وهي بلدة كئيبة باردة، لا روح فيها ولا حياة، يعمل معظم أهلها في مناجم الفحم الحجري وصناعة الصلب. ولأن ليدز تقع شمال إنجلترا فإن شتاءها شديد البرودة، وقد لا ترى الشمس فيها لأيام أو أسابيع، وإذا ظهرت فهي كقرص النحاس لا تعطي ضوءاً ولا دفئاً. أما سكان ليدز كما معظم الإنجليز فإنهم كما ذكرت يتوجسون خيفة وحذراً من الغرباء أصحاب السحن السمراء أو السوداء.

عندما سافرت إلى إنجلترا كانت معي زوجتي. وطبعاً أحتاج إلى سكن. وكنت أبحث في الجريدة المحلية عن شقق للإيجار، وكان هناك العديد من الشقق المعروضة. لكن ما إن أذهب إلى العنوان الذي أقصده، وتراني أو يراني صاحب المكان حتى يسرع إلى القول: إن الشقة قد أُجّرت، ويسرع بإغلاق الباب في وجهي ووجه زوجتي، هذا على الرغم من أنهم كانوا يؤكدون في المكالمة الهاتفية أن الشقة لا تزال معروضة للإيجار. حتى عندما نصحني أحدهم أن أضع إعلاناً صغيراً أقول فيه: إنني مُدَرِّس مساعد في الجامعة، وأتاني العديد من الجوابات تذكر كلها أن هناك شققاً خالية، فما إن يراني القوم حتى يعلنوا أنه لم تعد لديهم شقة خالية؛ بل إن بعضهم يسرع بإغلاق باب منزله، وعلى وجهه أو وجهها علامات الخوف! لا أدري ماذا سيكون الحال عليه الآن في إنجلترا لو ذهب عربي ليستأجر سكناً في لندن أو غيرها من المدن الإنجليزية؟!

أخيراً وجدنا شقة، لكنها كانت أشبه ما تكون بكهف. شقة في منطقة كئيبة، ومعظم مناطق ليدز كئيبة. كانت في الدور الأرضي من بناية صغيرة قديمة سوداء، وغرفها تتميز بعدم التنسيق؛ إذ إن الصالون «الفخم» يأخذ معظم مساحة الشقة، ولا يوجد به أكثر من كنبة قديمة وكرسيين. أما المطبخ فهو شبه ممر ضيق، وغرفة النوم الوحيدة لا تكاد تتسع لسرير

واحد، ولحسن الحظ لم يكن لدينا أطفال في ذلك الوقت؛ لأننا قدمنا إلى إنجلترا بعد زواجنا مباشرة في القاهرة. قلت قبل ذلك إن حياتي في القاهرة كانت كلها سعادة، وسعة صدر، وصداقات، وكل شيء مرح. وهنا في ليدز عرفت الكآبة. طبعاً مما يخفف الكآبة وجود زوجتي برفقتي، ولو أنها كانت هي أيضاً لا تقل كآبة عني، وكانت المسكينة قد تركت والدتها وإخوانها وأخواتها في مصر، كانت عائلة عمي، وزوجتي ابنة عمي، تعيش في مصر في ذلك الوقت. وكانت نقلة كبيرة لزوجتي الصغيرة؛ إذ فجأة تركت أهلها، وجاءت معي إلى بلد غريب لا يرحِّب بالإنسان الملون. ومن الصعب أن تصادق إنجليزياً حقيقياً إذا كنت في إنجلترا. كانت زوجتي ما إن أغادر الشقة إلى الجامعة حتى تنخرط في بكاء عميق حزين، تبكي أمها وأخواتها الذين فارقتهم لأول مرة في حياتها. كانت هناك أيضاً مسؤولية البيت والطبخ والقيام بواجبات زوج، وحياة جديدة. عموماً، لم تكن تدربت جيداً على الطبخ، ولذا فقد كنت أعود من الجامعة معظم الأيام، لأجد سماء الشقة - الذي هو أصلاً ظلام - أشدَّ ظلاماً من الدخان المنبعث من الطعام الذي احترق، بينما كانت أم نزار، لم تكن أصبحت أم نزار بعد، منخرطة في نوبة البكاء اليومية المعتادة. كنت أدخل الشقة وأرتعب من كثافة الدخان، ورائحة احتراق الطعام، وأشرع

أتخبط في الظلام منادياً اسمها، ثم أتنفس الصعداء عندما يأتيني صوتها المخنوق، وأتأكد أنها لا تزال على قيد الحياة! لحسن حظ زوجتي أنها لم تطل إقامتها في تلك الشقة أو البلد كلها؛ إذ ما لبثتُ أن حملتُ بابنتي البكر، وبعد بضعة أشهر عادت إلى مصر، لتلد طفلتنا في القاهرة.

ومما زاد نكد تلك البلد عليّ أن الإنكليز يدَّعون أن قضاءهم عادل، وأنه من أكثر القضاء في العالم نزاهة. إلا أن تجربتي مع القضاء الإنجليزي جعلتني أعارض تلك المقولة؛ فقد ذهبت ذات مرة إلى دكان يؤجر التلفزيونات، ولم يكن بالإمكان في ذلك الوقت والظروف أن يشتري مَن كان مثلنا تلفزيوناً بدلاً من استئجاره؛ وذلك لضيق ذات اليد طبعاً. المهم أنني ذهبت إلى الدكان، وهناك وجدت أخاً سودانياً بسبيل إعادة تلفزيون كان قد استأجره، لأنه مسافر كما قال. ولما علم برغبتي استئجار تلفزيون طلب مني أن أدفع فقط مبلغاً بسيطاً لآخذ منه التلفزيون إذ قد دفع هو باقي المبلغ المستحق.

أخذت التلفزيون منه وعدت به لشقتي. كان ذلك بالمناسبة في أواخر السنة، وكنت أعدُّ العدة للعودة إلى المملكة في الإجازة الصيفية. استخدمت الجهاز مدة بسيطة، وأعدته إلى الدكان المستأجر منه. وسافرت للإجازة الصيفية، وعدت إلى ليدز مع زوجتي. كنا قد استبدلنا بشقتنا الأولى شقة أحسن

قليلاً. وصلنا ليدز في المساء، وفي صباح اليوم التالي وفي ساعة مبكرة سمعت طرقاً شديداً على الباب، ولما فتحته، وجدت مخبراً يخطرني بالحضور إلى المحكمة. استغربت حكاية المحكمة، فقد كنت قد أعدْتُ التلفزيون إلى أصحابه قبل سفري ولا أعرف أنني اقترفت جرماً يستدعي محاكمتي! ثم كيف عرفوا أنني وصلت أمس مساء فقط. ذهبت إلى المحكمة، وجلست في مقعد مع المتحاكمين الآخرين، ولما جاء دوري أخذت مكاناً أشاروا لي عليه، وهو مكان وقوف المتهمين، وقام من الناحية الثانية؛ جانب المدعي - فأنا مدَّعَى عليه - قام محامٍ ودون أن أعرف ما هي القضية أصلاً، أخذ يكيل لي الاتهام بأنني أخذت من الشركة تلفزيوناً، وهربت من البلد دون دفع الإيجار، وبعد أن انتهى المحامي من كلامه، أردت فقط أن أعرف ما هي الحكاية إلا أن القاضي أمرني بصرامة إنجليزية أصيلة أن أسكت، وأنّ عليَّ أن أدفع كذا وكذا تعويضاً عما لحق بالشركة من أضرار، وإذا كان المبلغ كبيراً فيمكن لي أن أقسطه. ثم صرفني بإشارة من يده. ويحيا العدل الإنجليزي.

أعترف في تلك اللحظة أنني لم أترك كلمة في قاموس الشتائم العالمي إلا كلتها للإنجليز وقضاتهم؛ إذ كيف سمح ذلك القاضي لنفسه أن يحكم ضدي دون أن يكلف نفسه عناء

الاستماع إلى دفاعي عن نفسي، أو على الأقل تفسير ما ظنوه احتيالاً من جانبي. للأسف فهمت بعد الحكم أن الأخ السوداني هو الذي خدعني؛ إذ سلمني التلفزيون عند سفره دون أن يدفع ما عليه للشركة، وأكلت أنا المقلب. وعاشت الأخوة العربية.

*****

obeikandl.com

obeikandl.com

المركزية في العمل

أشرت في مكان ما من هذا الكتاب إلى المركزية الشديدة المتفشية في الدوائر والمصالح الحكومية، وعلى كل المستويات. فرئيس العمل يكون هو الحاكم المطلق في دائرته، كبرتْ تلك الدائرة أو صغرتْ، وفي اعتقادي لا يوجد لدينا إلى الآن ما يسمى مسؤولية الوظيفة أو واجباتها وحدودها، وماذا لها من مسؤوليات وما عليها من واجبات، هذا كله يقرره رئيس الدائرة، فهو السيد الآمر الناهي، الذي لا يستطيع أي أحد من الذين يعملون معه أن يخالفه الرأي، أو يتخذ قراراً مستقلاً عنه، هذا طبعاً هو الغالب السائد، لكنْ هناك رؤساء لا يترددون في إعطاء صلاحيات واسعة لمن يعملون معهم، ويأخذون برؤاهم. قد يقول قائل: إن هذا الكلام قد قيل مئات المرات، وكل الناس تعرفه، ولكن عندما يمرّ الإنسان نفسه بتجربة استمرت سنين عديدة، وهو يئنّ من إصرار رئيس العمل أن يعزو كل إنجاز لنفسه، دون أن يعترف بوجود عديدين آخرين ينجزون معه العمل، وأن من طبيعة الأشياء أنه لا يوجد إنسان واحد يستطيع بمفرده أن يقوم بكل أعمال دائرته، عندما يكون كل ذلك صحيحاً وواقعاً، ويبقى الآخرون جنوداً مجهولين، يصبح ذلك ظلماً فادحاً، يجلب الحزن والإحباط للآخرين. لقد

عملت مع رئيسيْن للمراسم الملكية، وكلا الاثنين ما زالا على قيد الحياة، وكلا الاثنين كانا من النوع النشط الذي يحب العمل، ويحب أن يريح مرؤوسيه وأخشى إن أظلمهما أن قلت شيئاً غير ذلك حتى أنَّ أحدهم كان إذا سافر للعلاج أو لأجازة يُمضي على عدد من الأوراق الرسمية المعدّة سلفاً، يُمضيها على بياض - كما يقولون - ثم إذا حان وقت العمل بمقتضاها يملؤها رئيس الدائرة المختص، وتَمضي في حال سبيلها أما الثاني فقد أصدر ذات مرة أمراً إدارياً مكتوباً لمدير الإدارة يأمره فيه أن لا يسند إلي ولا يطلعني على أي شيء! منتهى الشفقة والرحمة يحملها ذلك الرجل للعاملين معه! وهكذا فكلا الاثنين يتصرفان طبقاً لغريزة الحب! حب العمل والانفراد به، والحرص على راحة من يعمل معهما. ولكنْ غنيّ عن القول أنّ ما يسمّى المركزية في العمل هو الأسلوب السائد في معظم الإدارات الحكومية. ومعظم رؤساء الإدارات كبيرة وصغيرة يمارسونها، وكأنها الشيء الطبيعي.

مع أن الأشخاص الذين يعملون تحت إدارة الرئيس هم أيضاً يسهمون معه في إنجاح العمل، والقيام بما تتطلبه مواقعهم لكن غريزة التنافس والذود عن الكيان وعن المكاسب تبقى دائماً هي المسيطرة على بعض الناس ولو أكثروا من الادعاء بغير ذلك، كنت مثلاً أسافر مع الملك فهد رحمه الله

عندما كان ولياً للعهد، وكان الرئيس يرفض رفضاً قاطعاً إرسال أي أحد من الزملاء لمساعدتي، كنت أقوم بكل العمل المطلوب بمفردي، وهو عمل متعدد الجوانب والمسؤوليات، يدخل ضمنه ترتيب سكن الوفد، وترتيب سياراتهم، والإشراف على برنامج الزيارة بأكمله، وتوزيع الهدايا، واستقبال الهدايا من الجانب الآخر، والإشراف الكامل على راحة الوفد من سكن وغيره، وبالاختصار إدارة الرحلة من الألف إلى الياء. كنت أستعين طبعاً بالإخوان من السفارات السعودية وكنت أجد عندهم دائماً العزيمة الكريمة. أما بعض أعضاء الوفد الذين يصدف وجودهم في تلك الزيارات فكنت للأسف لا أجد عند أغلبهم إلا نظرات الشماتة، وأحياناً الإسهام في جعل مهمتي أصعب. إن من طبائع بعض الناس أنهم يتلذذون بمشاهدة علامات الحيرة والألم على وجوه الآخرين!!

وفي أكثر من مرة لاحظ الملك فهد رحمه الله أنني أرافقه بمفردي من إدارتنا، وكان يستغرب ذلك، لكنني لم أذكر له مرة واحدة أن ذلك لم يكن من اختياري. لقد تعلمت الكثير من تلك الرحلات، وعرفت أيضاً الكثير عن أخلاق الناس، ليس فقط الذين تركتهم ورائي ولكن أخلاق زملاء السفر! وصدق من قال أنك لا يمكن أن تعرف الشخص إذا لم ترافقه في سفر!.

*****

obeikandl.com

عن وضعي الوظيفي

إنني حتى وأنا أشغل منصباً غير ذي فعالية غالباً إلا أنه كان هناك أناس يتزلفون لي، ويطلبون وُدي، ربما لظنهم أنني قد أستطيع أن أقدِّم لهم أي خدمات من أي نوع. لم أكن أطلب من أحد أن يتزلف لي أو يخطب وُدّي؛ بل كنت أسرع بالإعلان لأي واحد من أولئك أنه لا توجد لدي صلاحيات ولا نفوذ لكي أساعد أحدهم في إبرام صفقة ما، أو الحصول على أفضلية في مناقصة أو مزايدة أو غيرها، أنا لم أتبوأ منصب وزير، ولا نائب وزير، وكل الذي بلغته هو وظيفة الدرجة الممتازة، وطالما رددت في سري بيت الشعر الذي يقول فيه أبو الطيب المتنبي:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

لم أكن طبعاً ولن أصبح يوماً ما ضد مساعدة الآخرين، الذين أرى أنهم يحتاجون إلى مساعدة أو وساطة للحصول على حق لهم أو خدمة هم بحاجة إليها. ولقد كتبت مقالة ذات مرة عن الوساطة، قلت فيها إنني أرحِّب بالوساطة التي أساعد فيها أناساً يحتاجون إلى هذه المساعدة، ويشهد بعض ذوي المناصب العالية أنني طالما قصدتهم طالباً تسهيل أمر، أو تقديم خدمة لمن لا يستطيعون أنفسهم الوصول أحياناً إلى أصحاب المناصب

الرفيعة. ولكي لا يأخذ كلامي هذا صفة الإطلاق، أقول إنني وقفت في مرات قليلة وقفات حازمة، ووظّفت بعض أشخاص قلائل في المراسم الملكية، ولا أنسى في واحدة منها أن أشيد بمساعدة ودعم سمو الأمير تركي بن عبدالله بن محمد؛ مستشار خادم الحرمين الشريفين، ذلك الرجل جمّ الأدب غزير الثقافة، فله مني دائماً كل تقدير. والحق أن بعض من ساعدتُ بالالتحاق بالمراسم أظهر من العرفان بالجميل ما تعدّى به أيام الوظيفة، وبقي وفيّاً مظهراً لي الودّ والعرفان بعد تقاعدي، أما بعضهم وللأسف فلا يجدي الكلام عن عدم وفائهم؛ لأنهم ربما خلقوا فاقدي فضيلة الوفاء هذه؛ وكلنا يعرف أن بعض الأشخاص يعانون من مرض لا أدري ما اسمه يجعلهم يعضون الأيادي التي تطعمهم.

*****

في ظلال القمة

قلت في مكان آخر من هذا الكتاب إن هناك أسباباً عديدة تقف كعقبات أمام كاتب المذكرات، خاصة من عمل قريباً من القمة. أود هنا أن أذكر أنني ربما أكرر نفسي أحياناً لأن المذكرات كتبت على فترات متباعدة وأيضاً لأن الذاكرة أصبحت مثل الغربال ذي الثقوب الواسعة حيث لم تعد تتذكر ما جاء ذكره وما لم يأت بعد. وحيث إن طبائع البشر وسلوكياتهم لا تختلف كثيراً من زمن إلى آخر، وإن من تحصيل الحاصل أن يسعى كل إنسان عاقل إلى الارتقاء والعلو، فإنه من الطبيعي أيضاً أن يكون التنافس شديداً للحصول على رضا صاحب الأمر. طالما شبهت التنافس والتسابق بين الموظفين للتقرب من القمة - طالما شبهته بالفراشات التي نراها بالمئات، وهي تتطاير حول النور الساطع، وكيف تحترق من بينها تلك التي تقترب من الضوء أكثر مما ينبغي.

هناك أيضاً الصف الثاني والثالث من المسؤولين، ومن حسن الفطن أن ينضم الصغير منذ البداية إلى كنف أحد هؤلاء. هناك طبعاً القدرات والمهارات الشخصية والسلوك المهني. لا يمكن لأحد أن ينكر أياً من تلك المؤهلات، لكن تبقى هناك حقيقة مؤكدة، وهي أنه من الشطارة أن تلوذ بأحد

الكبـــار. ولكي لا أقع في المحظور، أعلن أنني لا أتكلم إلا عن نفسي وعن تجربتي. ولأنني آليت على نفسي منذ البداية أن أقول الصدق في كل ما أكتب، فإنني أقرر هنا واقعاً طالما حيرني أشد الحيرة. فأنا عندما عملت في المراسم الملكية، كنت أجد أن معظم المسؤولين كانوا في الحقيقة يبدون نحوي عطفاً وحباً واضحين، وكان بعضهم يُعَبِّر عن ذلك صراحة.. لكنّ الأيام تمضي، وأبدأ ألاحظ أن ذلك الشعور نحوي بدأ يتغير، ويحل محله جفاء أو شيء مثل الجفاء. كنت أتألم لذلك كثيراً، خاصة وأنني حسب ما أعتقد لم أتغير أو آتي بما يُوجب الجفاء. هذا اعتقادي، وربما أكون مخطئاً، وخطأي الآخر أنني بعد العمل الرسمي أحب أن أكون مع أهلي، ثم أصدقائي الذين نشأت بينهم، ودرسنا معاً في المدارس والجامعات والدراسات العليا. لم يكن لي صديق قريب في المراسم الملكية أو الديوان الملكي، ولا ألوم غيري في ذلك، ولكنْ كما قلت كان الأصدقاء من خارج عالم الوظيفة.

ثم قد تكون هناك أسباب أخرى لذلك الجفاء الذي أصبحتُ أشعر به من أناس كانوا في البداية غاية في اللطف والرقة. يتهمني كثير من الناس أنني «نافخ خشتي» و«شايف روحي»، وهذه تهم ظالمة حقيقة؛ لأنني لست كذلك، لكنّ المشكلة أنه في أثناء العمل وكلما كانت المواقف صعبة ظهر التجهّم على وجهي ويبدو أنه حتى دون أي مواقف صعبة، فإن تعابير وجهي هي بطبيعتها حادة أو متجهمة.

ولقد عانيت كثيراً من ذلك من أناس لم يعطوا أنفسهم فسحة من الوقت ليعرفوني جيداً، واتخذوا قراراتهم بأنني متعجرف، وأحمد الله تعالى وأترحَّم على الملك خالد الذي لم يكن من ذلك النوع من الرجال؛ إذ قال لي ذات مرة مازحاً: «وراك يا الخريجي نافخ خشتك علينا؟» ماذا يمكن أن يكون جوابك عندما تأتيك مثل هذه الملاحظة من ملك؟!... لكنه رحمه الله كان خبيراً بمعادن الرجال، ويعرف دخائلهم، ويعرف أنني كنت واحداً من الذين عملوا معه وخدموه بإخلاص على قدر إمكانياتي.

كنت ذات مرة في ألمانيا، وبينما أنا أتجول في أسواق برلين شاهدت دكاناً صغيراً في أحد الأزقّة الضيّقة، كان الدكان مختصاً بوضع صور الناس داخل مجسمات صغيرة على شكل مكعبات أو مستطيلات من البلور بحيث تظهر الصورة نفسها مجسمة يمكن مشاهدتها من كل الجوانب. ولما أبديت رغبتي في عمل صورة مجسمة لي طلب الرجل أن يلتقط لي صورة التقط أول صورة، وظهر التجهم والعبوس!! لا أدري لماذا أتجهم وأعبس وأنا في إجازة؟ ولم تُعجب الصورةُ الرجلَ بطبيعة الحال كما لم تعجبني أنا أيضاً، وطلب صورة أخرى؛ ومثل الصورة الأولى، ظهرت الثانية عابسة، والتالية لم تكن أحسن من سابقتيها، مع العلم أنني في كل مرة أظن أنني على

وشك أن أضحك لا أن أبتسم فقط. ونال اليأس من الرجل، وسأل بشيء من العصبية: «ألا تستطيع الابتسام»؟ وغاظني سؤاله، وقلت: التقط صورة أخيرة ولا شيء بعدها، فإن لم تصلح فانسَ الموضوع. وظننت في الأخيرة أنني فعلاً أضأت وجهي بأعرض ابتسامة ممكنة. التقط الصورة، ولاحظت أنه قَبِل بها على مضض، ثم أكمل وضعها في المجسم الصغير، والمجسم موجود على مكتبي الآن لمن يود مشاهدته.

الحال الأخرى التي تأتي لي بالمشكلات هي ببساطة: النظر؛ يعني الشوف. فأنا نظري ضعيف، لا أذكر في كل حياتي أنّ نظري لم يكن ضعيفاً دائماً، وأحمد الله تعالى كل الحمد أن أبقى لي ما يكفي من نظري لأحيا حياة طبيعية، فقد كنت في طفولتي أعاني كل مدة مما يسمى الرمد الربيعي، كان ذلك وأنا ما زلت في قرية الوالدة رحمها الله في سورية. كانت عيناي تنغلقان تماماً وتتورّمان بشدة لمدة تصل أحياناً إلى شهر لا أرى خلالها شيئاً. والحمد لله مرة ثانية أن أبقى لي على أكثر من خمسين في المئة من نظري وبالنظّارة تزداد النسبة، مشكلة النظر هي أن ينظر إليّ شخص من مسافة ويومئ بالتحية، إلا أنني أحياناً لا أرى إن كان الشخص يحييني أم أن التحية لشخص آخر، وطبعاً حين لا أردّ التحية بأحسن منها كما هو المفروض يفسر ذلك بعضُ الأشخاص على أنه تجاهل وعدم

اهتمام، وهو لا يمكن بأي حال أن يكون كذلك. وتنفجر شياطين الغضب من بعضهم، خاصة الذين يظنون أنني الأَوْلَى بالبدء بتحيتهم على أن لا أردّ التحية!..

ولكن ما زلت وسوف أبقى تعصف بي الحيرة بسبب تنكّر بعض الرجال لي واستبدالهم بمودتهم جفاءً ظاهراً نحوي. ويعلم الله أنني لست حانقاً أو حاقداً على أحد، ولكن أتمنى لو أن بعض أولئك الذين كانوا يكنون لي كل المودة والعطف وصاروا فجأة يتجنبونني، أو اختفت الابتسامة من وجوههم إذا قابلوني، أتمنى لو أن أحداً منهم باح لي بالسبب أو الأسباب التي أبدلت بالمودة ضدها. أقول هذا لأنني أعرف نفسي أكثر من معرفة الآخرين بي. وأعرف أيضاً أنني بوجه عام لست من الرجال الذين ينفر الناس منهم. بل العكس هو الصحيح فأنا أتمتع والحمد لله بمحبة كبيرة وصادقة من عدد كبير من الأصدقاء، الذين أعتز بصداقاتهم كما يعتزون بصداقتي. والصداقة كما قد لا يخطر على بال بعض القراء شيء مهم جداً ورئيسي في حياتي، وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون أصدقاء. لقد سألني كثير من الإخوان إن كنت سأهجر الرياض الآن بعد التقاعد، خاصة وأن أولادي يعيشون في جدة، وأخي وأخواتي يقطنون المدينة. كان جوابي السريع أنني لا يمكن ولا أفكر بهجر الرياض فأصدقائي كلهم أو معظمهم يعيشون في

الرياض وسعادتي أن أكون قريباً منهم، كما أن سعادتي الكبرى أن أعيش في الرياض التي أصبحت على مر السنين الموطن الذي يصعب فراقه.

*****

obeikandl.com

جاهـــزون علـى مـدار الســـاعة، مع الابتسامة... لمن يستطيع

العمل مع الملوك والرؤساء شيء عظيم المسؤولية والأهمية؛ فأنت يجب أن تكون دائماً وأبداً على أتم الاستعداد، وأن تؤدي كل عمل بمنتهى الدقة والكفاءة. يعني ليس هناك مجال للخطأ أو التقصير، فيجب أيضاً أن تكون سريع البديهة كما ذكرت آنفاً. يجب أن يكون جوابك حاضراً لأي سؤال، وإذا لم يكن هو الجواب الصحيح فيجب أن تجلعه يبدو وكأنه الجواب المطلوب. إضافة إلى ذلك عليك أن تحسن التصرف بسرعة وكفاءة تبعاً للظروف التي تفرض نفسها عليك، ولأعطي مثلاً على ذلك: عندما يكون لدينا مؤتمر لِقمّة مثل قمّة الخليج وغيرها من القمم، تكون هناك اجتماعات عديدة مع جهات كثيرة لوضع خطة عمل كاملة، تبدأ من الاستقبال في المطار، إلى مغادرة آخر رئيس دولة. ذات مرة عقد مؤتمر في الرياض، وأعددنا برنامج الاستقبال في مطار الملك خالد الدولي وأجرينا بروفات وحسبنا قدر الإمكان الوقت الذي يستغرقه كل استقبال.. إلخ. وكنا سعداء في اعتقادنا أن كل شيء سيكون على ما يرام إن شاء الله. وفي يوم وصول القادة وصل إلى المطار الملك فهد

ليكون في استقبالهم، ترجل الملك من سيارته في الصالة الملكية، ونظر حوله ثم سأل: أين سيكون الاستقبال أجابه رئيس المراسم سيكون هنا في الصالة الرئيسة. نظر الملك حوله ثم سأل: أليس هناك صالة أخرى في الدور الأرضي قريبة من ساحة المطار حيث تقف الطائرات؟ أجبنا: نعم توجد صالة لكنها صغيرة. ولم ينتظر لنكمل لماذا جعلنا الاستقبال في الصالة الرئيسة كما هو مفترض على أي حال، بل رجع إلى سيارته وقال للسائق اذهب بنا إلى الصالة السفلى. وركضنا جميعاً وراء سيارته إلى الصالة الموجودة قرب الساحة على مستوى الأرض. دخل الملك الصالة وانفرجت أساريره، والتفتَ إلينا مبتسماً قائلاً: «هذا صالون ممتاز وقريب من الساحة وأسهل من الصالة العلوية». طبعاً أجبنا بالسمع والطاعة، ولكن لم يكن قد بقي على وصول أول ضيف إلا دقائق، وكان علينا أن نغير كل شيء في هذه الدقائق القليلة، وقد كان.

جاءني تليفون ذات يوم ونحن في جدة أن الرئيس المصري حسني مبارك يودّ زيارة المملكة لبضع ساعات ليقابل الملك فهد في المطار ويعود إلى القاهرة. عرضت الأمر على الملك ورحّب به وحدّد اليوم. رجعت إلى الملك لأرى ماذا سيوجه به في الاستقبال، وسألته إن كان يأمر أن نعدّ غداء في المطار بحالة ما إذا طالت مدة المحادثات. فكَّر الملك قليلاً ثم قال لا داعي

للغداء فهو سيكون عندنا لساعة أو ساعتين، ولا أظننا نحتاج غداء. قلت أمركم. إلا أنني فكرت في الأمر، ماذا لو طالت مدة المحادثات وأراد الملك أن يطعم ضيوفه، ثم ماذا يضيرني لو هيأتُ سفرة المطار، خاصة وأنها تتسع لحوالي عشرين شخصاً فقط. واستقر رأيي أن أعدّ طعاماً وإن لم يطلبه الملك، فلن يذهب سدى إذ سوف يجد مَن يأكله. وهكذا كان. استغرقت المحادثات وقتاً ليس قصيراً، وعندما طلبني الملك، أشرت وأنا في طريقي إليه إلى زملائي والآخرين إشارة فهموا منها أن الاتجاه سوف يكون إلى الساحة حيث طريق المغادرة. إلا أنني عندما دخلت على الملك وضيفه بادرني بالسؤال إن كان الغداء جاهزاً! وأجبت بالإيجاب. ودعا الملك ضيفه إلى مائدة الغداء، وأنقذني الله تعالى من ورطة لا أدري كيف كنت سأتخلص منها.

وعلى كل حال أُقرّ هنا والملك فهد الآن في ذمة الله وأدعو الله تعالى له بالرحمة الواسعة والغفران أن الغلط مع الملك فهد وإن كان يُقابل باللوم والتقريع إلا أن زعله رحمه الله لا يدوم أبداً؛ فهو إن لامك أو انتقد عملك، وأوضح لك خطأ إلا أنه في اليوم التالي ما إن يراك حتى يبتسم، وربما يضع يده فوق كتفك، ويؤكد لك أنك في منزلة ابنه، أو إن كنت في مثل سنه، فأنت أخاه. هذا ديدنه، وقد رأيت منه رحمه الله مثل هذا السلوك

أكثر من مرة. ولا آتي بجديد عندما أقول إن كل مَن يعمل من الطبيعي أن يخطئ، وهذا من صفات البشر. في مثل هذه المواقف يخطر لي قول الشاعر «لا يعرف الشوق إلا من يكابده» الذي يشكو هنا من معاناة الشوق، ويا لها من معاناة لذيذة، خاصة إذا كان المشوق شيئاً يستحق المعاناة. لكن عندما تكون هناك مكابدة دون حبيبة وتكون بعيدة كل البعد عن عالم الحب والهيام، عندها تكون المكابدة عذاباً شاقاً تؤدَّى كجزء من الوظيفة.

قد لا يخطر على بال أحد أننا في مواقعنا مجندون أربعاً وعشرين ساعة، كلٌّ حسب مركزه. فالمطلوب من رجل المراسم أن يكون مستعداً للعمل في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، وطالما كنا نقضي الليل سهارى متيقظين خاصة عندما نستقبل واحداً من أولئك القادة الذين اتخذوا لأنفسهم منهاجاً هو أن يطيلوا المحادثات لمدة قد تصل إلى عدة ساعات؛ لأنهم يظنون أن إطالة المحادثات تجعلهم يحصلون على ما يريدون لمجرد أن الجانب الآخر سوف يستسلم في النهاية بسبب الإرهاق ويمنحهم ما يريدون.

وقد استقبلنا كثيراً من هؤلاء، وكنا طبعاً نتهيأ لهم عندما يزورونا ونستعد لقضاء معظم ساعات الليل متعبين منهكين نصارع سلطان النوم على كراسينا ولا نجد وسيلة لطرد النعاس إلا بكميات القهوة والشاي التي نستهلكها.

كان الرئيس الراحل سياد بري رئيس الصومال الأسبق من هذا النوع من الزوار، وكان يكثر من زيارة المملكة. زارنا ذات مرة وعقدت جلسة المحادثات بينه وبين الملك فهد رحمه الله، ابتدأت الجلسة حوالي الساعة التاسعة مساءً، وجلسنا كالعادة ننتظر خارج المكتب، وبعد حوالي الساعة الواحدة صباحاً خرج الملك فهد، وأسرعنا بالالتفاف حوله متنفّسين الصعداء، وقال واحد من الموجودين: طالت المحادثات يا طويل العمر، وكان جواب الملك: «وهل تظنون أننا خلّصنا إننا لا نزال في الألف الأولى».

كانت أول مرة أسمع فيها هذا التعبير من الملك، وفعلاً رجع إلى غرفة الاجتماعات ثانية، ولم ينتهِ الاجتماع إلاّ في ساعات الصباح الأولى. لكن مهما كان العمل شاقاً ونحن في المملكة فإنه يكون أكثر صعوبة ومشقة عندما نسافر في رحلات إلى الخارج. طالما سافرتُ إلى بلدان لم أرَ منها إلا المطار ودار الضيافة، وطالما قضينا ليلة السفر دون أن يغمض لنا جفن أو حتى نأخذ قسطاً من الراحة؛ لأن كل فرد من أعضاء الوفد يكون لديه ما يقوم به من إعداد البيان المشترك وترجمته واجتماعات جانبية لأعضاء الوفد الرسميين وغيرها من الواجبات التي يجب أن تؤدَّى قبل السفر.

لقد سافرت كمترجم في جميع رحلات الملك فيصل رحمه الله عندما كان يجوب العالم داعياً إلى التضامن الإسلامي.

وتلك الرحلات الكثيرة لم تكن تختلف كثيراً عما ذكرته من حيث العمل المتواصل والسهر الذي يستمر أحياناً كما ذكرت إلى الصباح. لكن لحسن الحظ كان هناك بعض حالات يترك المضيف فيها يوماً كاملاً للراحة. لَكَمْ كنا نسعد بيوم مثل هذا. عندما يكون هناك عمل شاق متواصل، تصبح أي ساعة راحة شيئاً ذا قيمة. ولا زلت أقدر للإخوان اللبنانيين والإخوان المصريين عندما خصص كل منهم يوماً كاملاً للراحة خالياً من أي أعمال رسمية، بل تُرك الأمر للملك ليختار كيف يقضيه؛ ونحن في مثل تلكم الحالات أيضاً نصبح أحراراً نقضي ذلك اليوم كما نشاء، وتصبح المتعة كبيرة إذ لا واجبات رسمية ولا تقيّد بأوقات محددة.

كانت رحلة أوغندا من الرحلات الصعبة التي كنت فيها ضمن الوفد الرسمي؛ إذ قرر الملك فيصل أن يزور ثلاث دول إفريقية هي: تشاد ومالي وأوغندا، ودولة عربية إفريقية هي موريتانيا. كانت المحطة الأول هي أوغندا، وكان عيدي أمين هو الحاكم. كانت رحلة تميزت ببرنامجها المزدحم الذي عمل دونما أي اعتبار لراحة الضيف. الطريق من المطار إلى العاصمة كان يزيد على ستين كيلو متراً، وطوال هذه المدة أو معظم الوقت كان عيدي أمين يطلب من الملك أن يقف في السيارة ليحيّي الناس حتى ولو لم يكن هناك إلا امرأة أو اثنتان تسيران في

الطريق الريفي وتحملان على رأسيهما قفة حشيش أو خضار. وكلما أراد الرئيس أن يقول شيئاً للملك يبدأ أولاً في «نغزي» بأصابعه الطويلة القوية في خاصرتي حيث كنت أجلس في المقعد الأمامي من السيارة بجانب السائق. ثم إن الرئيس أمين لم يفكر أن الملك قد وصل للتو من بلده بعد رحلة طويلة، فهو قد أمر السائق أن يتّجه مباشرة إلى نادٍ خاص بالسيدات المسلمات.

فوجئنا في ذلك النادي بالنساء العضوات فيه وهن يرقصن ويضربن على الدفوف، وفي الوقت نفسه يرتلن بعضا من صور القرآن القصيرة وكأنهن ينشدن أناشيد!. كان المنظر مثيراً للدهشة والضحك في آن؛ لكن من المعروف أن أي جماعة تتحول عن معتقداتها الموروثة إلى دين جديد تحمل معها بعض هذه المعتقدات ولا تتخلص منها إلا بالتدريج وبدروس مكثفة في الدين الجديد. وهذا ما حصل إذ أمر الملك فيصل أن يرسل لأوغندا دعاة مؤهلين يعلّمون الدين الإسلامي على حقيقته.

كان البرنامج في أوغندا مكثفاً يشغل كل ساعات النهار وجزءاً من الليل. وليتأكد الرئيس أمين من تنفيذ برنامجه بدقة انتقل إلى السكن مع الوفد السعودي في الفندق الذي نزلنا فيه. كان يرافق الملك في كل تحركاته، وكان لا يتردد إذا ما رأى صدفة في طريقه شيئاً يثير اهتمامه أن يأمر الموكب بتغيير طريقه والتوقف عند ما ظن أنه يستحق المشاهدة. لكنّ الرجل

وهو الآن في ذمة الله كان شديد الفخر بزيارة الملك فيصل، شديد الإخلاص أيضاً في علاقته الوطيدة التي أنشأها في حياته مع المملكة.

*****

obeikandl.com

مجالس آل سعود

عندما وحَّد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله هذه البلاد حكمها بالشريعة الإسلامية، وجعل القرآن دستورها، ونشر فيها العدل بعد أن كانت الفوضى سائدة والقانون مغيباً، والشريعة السائدة هي شريعة الأقوى. وعرف أهل البلاد أنه بمجيء الملك عبدالعزيز انتهى زمن الفلتان الأمني، وحلّ محلّه الأمن والأمان، وترسخت أسس العدالة وأصبح الناس يتقبلون حكم الشريعة الغراء، ويتعاملون بموجب النظام الذي شرَّعه الله عز وجل في كتابه الكريم، وثبَّته الملك عبدالعزيز في مملكته الفتيّة، وعاش الناس عهوداً طويلة وما زالوا ولله الحمد يعيشون ويتصرفون في حياتهم حسب ما تمليه عليهم الشريعة الإسلامية. وسن الملك عبدالعزيز كثيراً من السنن الحسنة، منها حرصه على البقاء قريباً من أبناء وطنه، ليس فقط من خلال ما أقام من مؤسسات حكومية مما تتطلبه الحياة الحديثة، بل أيضاً حرص على أن يبقى على اتصال شخصي بمواطنيه من خلال جلساته ومجالسه المفتوحة دائماً. وقد سار أبناؤه على سُنَّته الحسنة تلك. إلا أن الأوضاع الآن أصبحت تختلف عن الأوضاع التي كانت سائدة أيام الملك عبدالعزيز إذ تغيَّر العالم عما كان عليه

منذ مائة عام. فقد ظهرت تيارات كثيرة وأفكار كثيرة ونظريات متنوعة، كما تغيرت نفوس الناس أيضاً ولم يعودوا كما كانوا أو كما كان آباؤهم وأجدادهم. نعم، اختلفت النفوس وأصبحنا نحن المخضرمين مثلاً نبكي على الزمن الماضي الجميل عندما كانت النفوس نقيّة بسيطة صادقة نزيهة، تقبل بما قدَّر الله لها من رزق وتشكر الله عز وجل عليه. كان الناس في الماضي يتعاملون ويعقدون صفقاتهم مثلاً بالكلمة؛ إذ كان للكلمة مكانة عند الرجل، وكان الرجال يفضلون الموت على الحنث بكلمة أو أي سلوك لا يليق بالرجال. حتى مجالس الملك عبدالعزيز كان الحديث فيها كما يخبرنا مَن حضروها تخوض في الشؤون العامة التي تهم المملكة ومجتمعها كله.

سار الملوك والأمراء من آل سعود على نهج المؤسس الكبير، وفتحوا أبواب بيوتهم لأبناء الشعب وبقي التواصل سُنّة، إلا أن الأمور بدأت تختلف تدريجياً، على الأقل في بعض المجالس إذ بدلاً من أن يتركز الحديث حول الشأن العام الذي يهم البلد والمواطنين جميعاً أصبح بعض الأشخاص يشغل المجالس المفتوحة بمشكلاته الشخصية، ويسعى للحصول على منفعة خاصة. قد يقول قائل: إن مجالس الحكام على مدى تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده كانت مناسبات لبعض مَن يسعون إلى فائدة خاصة إما بالطلب المباشر أو بإلقاء شعر المديح، كما كان يحصل في الماضي وفي الحاضر أحياناً.

ونحن نقول إن التغيُّر والتطور هما سنّة الحياة، وإنه مع النمو السكاني إلى الملايين العديدة لم يعد يجدي في مجالس الحكام بحث أمور فردية، وإن هذه المجالس يجب أن تعقد الآن ليتباحث الحاكم مع أبناء وطنه فيما ينفع البلد والمواطنين جميعاً، وليس لمصلحة خاصة صغيرة قد لا تكون أكثر من طلب شيء بسيط يمكن أن يتحقق بوساطة مكاتب وموظفين يُخصصون لهذه الأغراض الشخصية.

إن مجلس الحاكم له أهميته القصوى، وهو يقوم مقام البرلمانات في مفهوم الديموقراطية الغربي؛ إن مثل هذ المجالس ينبغي أن تكون وهو المقصود أصلاً مناسبةً لتبادل الآراء والنقاش بين الحاكم والمحكوم، ويجب أن يكون الهدف هو المصلحة العامة. فالمجلس يضم التاجر، ورجل الأعمال، ورجل الصناعة، والمثقف العام، والاقتصادي.. وهؤلاء لو تترك لهم الفرصة للتباحث في الشؤون العامة للبلد، كلٌّ فيما يحسن الحديث حوله، لأتت هذه المجالس بفائدة أكبر بكثير مما يحصل فيها في الواقع. إذ ما يحصل الآن في معظمها أنه ما إن يصل ولي الأمر أو ولي عهده أو المسؤول من الأمراء حتى يصطف أصحاب الطلبات الخاصة الصغيرة التي تخص أصحابها فقط، ويضيع الوقت وتنتهي الجلسة قبل أن تترك أي فرصة للآخرين أن يتحدثوا بشيء.

نحن لا نطالب بقفل الأبواب أمام أصحاب الطلبات الخاصة، بل ما نعنيه هو أن يكون لهؤلاء مكاتب مخصصة ومسؤولون معينون لتوصيل طلباتهم وشكاواهم إلى ولي الأمر، أما الجلسة العامة فيجب أن تُخصص كلية للحديث في الشأن العام، الذي يأتي بالفائدة لكل فئات المجتمع. وطالما فكرتُ عندما يحدث أحياناً أن يكون هناك ضيوف أجانب في المساء يحضرون إحدى تلك الجلسات التي تعقد مرة أو أكثر كل أسبوع، ثم يرون صفاً طويلاً من أصحاب الطلبات الخاصة بأوراقهم، وهم يأخذون دورهم في المثول أمام ولي الأمر لتسليمه ما يحملون من أوراق، وتبادل بعض الكلمات معه، أقول طالما فكرت في ماذا سيظن الضيوف الأجانب عندما يرون ذلك العدد الكبير من الناس ينتظرون دورهم للمثول أمام ولي الأمر. إنّ ظن أولئك الأجانب أنّ كل هؤلاء الناس يشتكون من أمور حدثت لهم ولم يجدوا إنصافاً أو حلاً لشكاواهم ممن يتولون شؤونهم المختلفة، يكون هناك خلل ما في عمل أولئك الموظفين الذين لم يقوموا بواجباتهم كما يجب ويفترض فيهم. أما إن كان كل أولئك المصطفين فقراء ويطلبون مساعدات خاصة وشرهات توزع عليهم، فالأمر إذن يكون أكثر سوءاً. أما الافتراض الثالث والأكثر احتمالاً فهو أن ملوكنا وأمراءنا كرماء

ولا يردّون طالباً أتاهم يطلب مساعدة أو فزعة لمناسبة وغير مناسبة، وبهذا تعودت فئات مجتمنا على اللجوء لمثل تلك الوسيلة للحصول على ما يمكنهم الحصول عليه من مال بطريقة سهلة!.

وهذا كما ذكرت جزء من بقايا حضارتنا وتراثنا الذي ورثناه عن المتقدمين.

*****

obeikandl.com

obeikandl.com

نكرات معذبون في الأرض

تصوّرْ لو كان بإمكاننا أن نطلع على دواخل حياة أناس مجهولين. أولئك الناس الذين يولدون ويموتون دون أن يسمع بهم أحد. هناك نجد الدروس والعبر، وهناك نجد المآسي والمعاناة المستمرة الدائمة التي يعانيها أولئك الناس للحصول على لقمة العيش. إن البشر الذين يعيشون حياة صعبة، ويكافحون ليحصلوا فقط على ما يقيم أودهم، هم الأكثرية في هذا العالم، وهم الذين لدى كل واحد منهم قصة كفاح مُبكٍ، وعراك مع الحياة يبدأ منذ أن يعوا الحياة ولا ينتهي إلا بانتهاء حياتهم نفسها.

سوف أحكي لكم طرفاً فقط من قصة امرأة عاشت حياة كفاح من هذا النوع. كانت عائلتها تحترف مهنتي الزراعة والرعي معاً، مثل معظم أهالي البلد، وحياة كهذه تعتمد بعد الله تعالى على ما تجود به السماء من أمطار، شريطة أن تهطل في مواسمها الصحيحة. كانت المرأة التي أحكي عنها واحدة من عائلة كبيرة، تعيش كلها في منزل واحد، أو منازل مترابطة متلاصقة واقعاً ومجازاً. كانت سيدات البيت الكبير يقمن بأعمالهن المنوطة بهن على الطريقة التي عرفنها وورثنها عن أمهاتهن وجداتهن، وهي التفاني بأداء ما يسند إليهن من

أعمال. كان من نصيب المرأة التي أتحدث عنها أنها كلفت مع زوجها برعي المواشي التي تمتلكها العائلة.

قد يتخيل ساكن المدينة أن عملاً كهذا جميل ويوحي برومانسية قوامها الحب وغذاؤها قطرات الندى وموسيقاها همسات النسيم العليل. ولا غرابة أننا لأول وهلة تأتي لنا صورة المرأة كفتاة جميلة رشيقة القوام هيفاء تتهدل جدائل شعرها على كتفيها، وينبعث شذى الأزهار التي تحيط بها رأسها، فيملأ الجو حولها عبقاً فاتناً. وعلى فكرة لدي صورتان فوتوغرافيتان كبيرتان لمنظر لا يختلف كثيراً عما صورته أو تخيلت أن القارئ يتصوره عن فتاة ترعى الماشية، وأعتقد أن الصورة أخذت لغرض الاستفادة منها في معرض للصور، وقد نجح صاحب الفكرة وبيعت الصور التي تجسد الرومانسية والجمال العذري للفتاة الجميلة وهي تسوق قطيع الماعز والأغنام في الصحراء.

إنما الصورة الحقيقية للمرأة التي أتحدث عنها تختلف كل الاختلاف عن ذلك. لقد سمعت الحديث من المرأة نفسها، وهي الآن قد هرمت ولزمت بيتها في قريتها، بعد أن كبر أولادها، وصار بمقدورهم أن يقوموا بالعمل نيابة عنها. قصّت عليّ المرأة قصة يوم واحد فقط من حياتها في أيام كدها وكدحها مع زوجها. قالت: أصبحنا ذات يوم ونحن في خيمة وسط

الصحراء؛ خيمة صغيرة ذات ثقوب عديدة، سمحت طوال الليل للمطر والريح الشديدة أن يمضيا معنا الليل في الخيمة، كان البرد القارس في شتاء تلك الليلة من القسوة بحيث لم نستطع النوم لحظة واحدة. وما كان على جسمي وجسم طفلي لم يكد يحمينا من لسعة البرد. كانت الماشية قد سيقت في يوم سابق إلى مكان أكثر كلأً من المكان الذي كنا نخيم فيه. وكان علينا أن نبدأ رحلة السفر قبل بزوغ الفجر، ونحن بالمناسبة نبدأ العمل دائماً قبل أن يطلع نور النهار. لم يكن الجو قد تحسن كثيراً؛ فالسماء ما زالت ملبدة بالغيوم، والريح تخترق ملابسنا وتجمد أطرافنا، كان علينا أن نسير أكثر من خمس عشرة كيلو متراً للوصول إلى الموقع الجديد. لم يكن السير مثل هذه المسافة أو الأكثر منها ليشكل لي مشكلة لو كنت أسير بمفردي، لكن المشكلة أنه كان عليّ أن أحمل على رأسي قدراً ضخماً قد امتلأ بقدور أصغر وصحون وملاعق وغيرها، وهي كل ما نملكه. كان علي أن أوازن القدر الضخم على رأسي دون أن أمسكه بيدي؛ لأن يديّ كانتا تحملان طفلي! كنت أمشي والريح القوية مصحوبة بذرات المطر تصفق وجهي الذي لم أكن حتى لأستطيع أن أمسح عنه الماء؛ بسبب الحالة التي كنت عليها؛ تصوّر أنني سرت مسافة الخمسة عشر كيلو متراً لم أسترح فيها، إلا عندما اضطررت لإرضاع ابني، عندما بدأ يصرخ من الجوع!!

*****

obeikandl.com

الحياة والأصدقاء

نعيش مع الذين نحبهم، وتمتزج حياتنا بحياتهم، ونتعود على وجودهم، ونسير بدروب الحياة معهم وبقربهم، وقد تفرقنا ظروف حياتنا عنهم، إلا أننا ندرك طوال الوقت أنهم قريبون منا عندما نحتاجهم، لكن في كل ذلك تغيب عنا حقيقة أنه لا شيء يدوم، مع أنها الأبرز في هذا الوجود.

عندما يسألني أحدهم: من أين أنت من المملكة؟ يكون جوابي عادة هو: أنا من كل أنحاء المملكة. فالأصل من القصيم، والنشأة في المدينة المنورة، والحياة العملية كانت ولا تزال بين جدة والرياض، وأخي وأخواتي يسكنون المدينة المنورة، وولداي نزار وإياد يقطنان جدة، أما أنا فقد اخترت بعد التقاعد أن أقضي ما بقي لي من عمر في الرياض. لماذا؟... لأنني طالما اعتبرت الرياض هي بلد المقر، ولو أنني أمضيت شطراً كبيراً من حياتي أقيم بشكل متساوٍ تقريباً بين الرياض وجدة. والآن وبعد أن أصبحت طليقاً من قيود الوظيفة أسكن الرياض، وأفضلها على غيرها... أعتبر منزلي في الرياض هو البيت الرئيس، ولكن أهم من المنزل هو مجموعة الأصدقاء الذين حباني الله تعالى بهم، والذين أحبهم ويحبونني، على الرغم من

أن معظم أفراد عائلتي كما ذكرت يقيمون بين المدينة وجدة. جئت الرياض ذات صيف، وصدف أن كان معظم أصدقائي خارج الرياض أو خارج المملكة؛ لأن الوقت كان وقت الإجازات. واكتشفت شيئاً جديداً لم أكن أعرفه، وهو أن البلد الذي أعيش فيه منذ سنين عديدة بدا لي وكأنه بلد غريب، لم تطأه قدماي من قبل. وأن الشوارع والبنايات لا تعني شيئاً من دون الناس. الصداقة نعمة من نعم الله على بني البشر، والحديث عنها حديث عن شيء أساسي وحيوي في حياة الناس.

لقد بدأت بالقول إننا عندما نحب أشخاصاً تجمعنا حياتنا بهم لا يخطر على بالنا أننا قد نفقدهم عندما لا نتوقع ذلك. قد يغادرون حياتنا وعالم الأحياء برمته دون أن نكون قد تهيأنا لمغادرتهم. عندها فقط نحس بفداحة الفراق، وبأننا لم نأخذ حقنا كاملاً من صحبتهم ومحبتهم. أقول هذا القول وبذهني صديقان ممن فقدت في السنوات الماضية. أحدهما ابن خالتي السورية، واسمه عبدالرحمن الصالح. لعلي لم آتِ كثيراً على ذكره في كتابي الأول من سيرتي الذاتية. كنا في طفولتنا وصبانا لا نكاد نفترق. جمع بيننا الحب والتآلف، وقبل ذلك التشابه الكبير في شخصيتينا. كنا لا نتفارق إلا إذا أجبرنا الأهل على القيام بعمل ما، وقد تحدثت عن نوع الأعمال التي كان علينا القيام بها، والتي كانت تتطلبها الحياة القاسية في

تلك القرية (القريتين) في ذلك الزمن البعيد. وإذا كنت أعتبر أن حياتي كانت قاسية، وكان مطلوباً مني أن أقوم بأعمال أكبر من سني وطاقتي، فما كان مطلوباً من عبدالرحمن كان أكثر وأكبر بكثير مما كنت أقوم به. وكغيرنا من أبناء القرية آنذاك، كان ذلك هو السائد، وكان الشقاء من نصيب معظم الكبار والصغار لمواجهة قسوة الحياة.

ما جمعني بعبدالرحمن هو صلة القرابة والسن، كان هو أكبر مني سناً بسنتين أو حولها، لكنه كان يسبق سنه بما كان لديه من عقل واتزان تميز بهما منذ نعومة أظفاره. وعندما كنت أظن أن نهاية العالم تنتهي عند الجانب الآخر من التلال المحيطة بالبلد كان عبدالرحمن يحكي عن عالم آخر كبير، يعيش الناس فيه حياة أكثر غنى وحضارة مما نعيشه نحن. كان حكيماً صغيراً، وكان يحلم دائماً بأن حياته لا يمكن أن تستمر هكذا تعباً وشقاءً. كان شاعراً، حتى ولو لم يقل شعراً، وإنما شعره كان في خيالاته التي تشطح بعيداً عن حدود واقعه، تأخذه من عالمه المحدود إلى آفاق أكثر اتساعاً وإثارة، وكان فوق ذلك موسيقياً! درب نفسه على الربابة؛ الآلة الوحيدة التي كانت معروفة بالقريتين، حتى أصبح من أمهر الناس في العزف عليها. ولم يكن قويّ البنية، ولذا فقد كان دائماً يبدو عليه التعب والإرهاق من جراء الأعمال الشاقة التي كان عليه أن

يؤديها مع إخوته الأكبر منه، كان هو أصغر إخوانه سناً، وكانوا ثلاثة. ولكنّ لأن الحياة في القرية والريف تتطلب دوماً العمل الشاق الذي لا يرحم ضعفاً، أو يجامل روحاً شفافة، فقد عقد الشقاء مع عبدالرحمن حلفاً، كان للشقاء فيه اليد العليا. حكى لي ذات مرة - وقد زرت القريتين بعد مضيّ سنين عديدة - إنه كان أحياناً يُضطر إلى العمل طوال ساعات النهار وجزءاً من الليل، لدرجة أنه كان يسير وراء الحمار المحمل بالأثقال، وهو نائم!! ألم أقل إن الحياة في الريف وخاصة في تلك الأيام كانت قاسية لا ترحم.

هل تذكرون قصة المرأة التي كانت مع زوجها يرعيان أغنام ومواشي العائلة، وما كانا يعانيان من إقامتهما في البراري، ومن تحملهما لبرد الشتاء القارس، وتقلبات المناخ، ومن تنقلهما الدائم خلف مواشيهم، ومن شظف العيش عامة؟ لقد كانت تلك المرأة زوجة عبدالرحمن، وهي في الوقت نفسه أيضاً ابنة خالي محمد الفهد المحجل. لقد كانت هي أيضاً امرأة عظيمة؛ تحملت ما لم تتحمله امرأة، لكنها الآن والحمد لله تنظر إلى كل ذلك وقد أصبح خلفها بعد أن كبر الأولاد، ونجحوا في أعمالهم المختلفة، وأراحوا أمهم التي لم يعد لها من عمل الآن، إلا أن تأمر وتنهى أولادها وزوجاتهم وأحفادها العديدين وما شاء الله كان.

طلب مني عبدالرحمن ذات مرة أن أحصل له على فيزا عمل في المملكة، وحصلت له على الفيزا، وقَدِم إلى المملكة. استضفته في بيتي ووجدت له عملاً. لكنه لم يمكث طويلاً؛ إذ سرعان ما أضناه الحنين إلى القريتين، وحُبّ الوطن من الإيمان، مهما تقسو الحياة علينا، ومهما نعاني؟ من شقاء وعذاب في وطننا، يبقَ وطننا هو المكان الذي لا يعادله مكان في الدنيا، ورجع عبدالرحمن إلى القريتين، وتنفس الصعداء بعد أن مكث أسابيع قليلة في المملكة، بكى خلالها كثيراً، عندما كان يخلو إلى نفسه في الغرفة التي خصصتها له في بيتي!

ذهبت مرة إلى القريتين، وقليلاً ما كنت أذهب في السنوات الماضية، وطبعاً كنت أحل ضيفاً في منزله. كانت قد مرت سنوات عديدة، وقد هرمنا كلنا، وبان التعب والإرهاق على عبدالرحمن، وفقد جزءاً كبيراً من حاسة السمع. لم أمكث للأسف إلا بضع ساعات في القريتين؛ إذ كنت في طريقي إلى سفر آخر خارج سوريا. تحدثنا بضع ساعات، وحان وقت رحيلي. ودّعته وتساءلت في نفسي إن كنت سأراه مرة أخرى. ولم تمضِ إلا سنة بعدها، وجاءني النبأ أن عبدالرحمن قد مات! بكيت، ولكن تألمت أكثر من البكاء، وتمنيت لو كنت في تلك السفرة الأخيرة مكثت معه بعض الوقت، ولكن لم ينفع

ندمي. ما زلت أفقد عبدالرحمن، وأترحم عليه، ولا تزال القريتين وستبقى خالية من أهم إنسان كان يشدني إليها.

وكما القريتين وحنيني إليها والذكريات كانت المدينة المنورة هي المدينة التي عبرت من خلال حرمها، ومن عبق شوارعها القديمة، ودكاكينها البسيطة، وأزقتها الترابية ورواشين بيوتها، هي التي عبرت من خلال كل ذلك إلى سني الصبا المبكر، ثم سن الشباب حيث يبدأ الوعي ويتشكل، وتبدأ ملامح الشخصية تتكون. هناك في المدرسة المتوسطة ثم الثانوية بدأت صداقات راسخة لم تتغير على مر الأيام. هناك توثقت صداقتي مع محمد الخربوش رحمه الله الذي أصبح فيما بعد زوج أختي الصغرى أم خالد الخربوش. كانت نشأة محمد تشبه إلى حدّ ما نشأتي؛ إذ هو أيضاً فقد أباه صغيراً، وعانى من اليتم المبكر، وكان يرعاه أخوه الأكبر الشيخ عبدالله الخربوش رحمه الله، العالم والمُدَرِّس للفقه في مدارس المدينة. ابتدأتْ صلتي مع محمد ونحن في أواخر سني الدراسة الابتدائية، ثم سرعان ما افترقت بنا الطرق؛ إذ التحق هو بالمدرسة العسكرية ليتخرج ضابطاً، بينما واصلت أنا الدراسة الأكاديمية. وتمر الأيام ويتزوج محمد من أختي. كنت لا أزال أدرس في جامعة القاهرة بمصر. تنقل محمد في مناطق مختلفة في المملكة واستقر لمدة طويلة في الرياض، وهناك تعمقت الصلة والصداقة. إن كان

المثل الذي يقول: «رُبَّ أخ لك لم تلده أمك» يُشك في صدقه، فإن علاقتي بمحمد تؤكد بما لا يترك مجالاً لشك أن المثل صحيح. يتكلم الناس حين يزوجون بناتهم أنهم لم يخسروا بنتاً وإنما كسبوا ابناً، وهذا كان ينطبق تمام الانطباق على علاقتنا بمحمد. كنت فعلاً أردد لنفسي دائماً: إن أمي ولدت أخاً واحداً لي هو صالح، ولكن الله رزقني بأخ ثان هو محمد الخربوش، كان بمفرده مجموعة رجال؛ فهو الزوج المحب الوفي لشقيقتي، والأخ الحبيب لنا نحن أخوان وأخوات زوجته، والابن البار بأمي رحمها الله، والساعد والمعين للعائلة كلها. كان بالاختصار فرداً من العائلة بكل ما تحمل الكلمة. وفي الرياض لم نكن نفترق، فقد توطدت العلاقة حتى أصبح أحدنا لا يفترق عن الآخر إلا للعمل.

تشاجر ذات مرة مع زوجته، أختي أم خالد، كما يحصل عادة بين أي زوجين، ويظهر أن الشجار كان أكثر حدة من المعتاد، فهددت أم خالد أن تهاتفني وتطلب مني أن آتي لأصحبها إلى منزلي؛ لأنها لم تعد تطيق كما ظنتْ وقتها أن تستمر بالعيش مع هذا الزوج الذي كان لا يهنأ له طعام إلا إذا شاركه فيه ضيف أو صديق. وكان هذا سبب الخناق؛ إذ إن محمداً لا يتردد في دعوة من يراه مرشحاً لمشاركته الطعام في أي وقت من النهار أو الليل، بغضِّ النظر عما إذا كانت زوجته مستعدة لذلك أم لا. واحتدم الشجار في هذه المرة، وأصرّت

أختي على أن آتي لأخرجها من بيتها. تحكي لي هي الآن حيث نسيت أنا الحكاية كلها. تقول: «حضرت نفسي لأذهب معك، غير أنني فوجئتُ عندما وصلتَ بيتنا أنك أنت ومحمد سلّمتما على بعضكما بحرارة كالعادة، ولم تمضِ إلا دقائق حتى سمعت ضحككما عالياً، وبعد دقائق أخرى طلبتما العشاء، وجلستُ أنا أحضر العشاء، وأضرب كفاً بكف على حظي الذي جعل أخي يقف مع زوجي ضدي!!».

لم يكن من السهل على أحد - وخاصة أخو زوجة محمد - أن يزعل من أبي خالد رحمه الله، فقد كانت السماحة والابتسامة الدائمة والطيبة كلها تتجسد في ذلك الإنسان، الذي غادرنا إلى عالم الخلود، وترك أطيب الأثر وأبقاه إن شاء الله.

ولا أزال إلى اليوم، وسوف أبقى إلى ما شاء الله، أجد غصة في حلقي وربما أذرف دمعة في كل مرة أقبل على المدينة المنورة وأنا أعلم أن محمداً لن يكون في استقبالي، ولن نسهر معاً، ولن نتسامر ونضحك معاً. أو نتجادل إلى حد الشجار عندما أكون رفيقه في لعبة البلوت التي كان شديد الغرام بها. لقد انتهى كل ذلك، ولكنني أُمَنّي نفسي بعون الله ورحمته أن أجتمع به في جنة الخلد مع الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

*****

تكلمت عن بعض أحبائي الذين انتقلوا إلى رحمة الله، وأتكلم الآن عن أحبائي الذين ما زالوا على قيد الحياة، ويأتي في مقدمتهم أخي صالح - أطال الله عمره. صالح طبعاً كان هو المحرك الرئيس الذي «هندس» عودتنا من سوريا إلى المملكة، وفي الوقت المناسب؛ إذ لو تأخرت العودة - مثلاً- لضاعت عليّ فرصة مواصلة تعليمي نهائياً. لكن الشيء العجيب الذي من أجله أطرق الموضوع الآن - وبالمناسبة أحاول أن أكون حذراً من أن أكرر نفسي، وأكرر ما قلته في كتابي السيرة الأول - أقول أطرق الموضوع الآن لأحكي عن ظاهرة غريبة عن صالح، وهي حبه بل عشقه للقريتين، لم أعرف أحداً من قبل يحمل هذه الكمية من الحب لبلد كما يحمل صالح من حُبٍّ للقريتين. كل قلبه وعقله ووجدانه متعلق بهذه البلدة التي لم تتغير كثيراً من حين تركناها. لا يجد فرصة إلا ويسرع إلى أحضان بلده الحبيب. زوجة صالح الأولى كانت من القريتين، وقد توفيت رحمها الله؛ تركت له البنين والبنات الذين والحمد لله يعيشون حياة سعيدة في مواقعهم المختلفة، وأصرّ صالح بعد وفاة زوجته الأولى أن تكون زوجته الثانية من القريتين أيضاً، والأسباب طبعاً معروفة.

أردت ذات سنة أن أبعد تفكيره عن زيارة القريتين السنوية التي ينتظرها بفارغ الصبر. خططت لقضاء إجازة معه، ومعنا

زوجتانا. كانت إجازة راقية إن جاز هذا التعبير؛ فقد بدأنا باليونان، وقد أكرمنا رجل أعمال يوناني، كنت أعرفه وخصص لنا يختاً نجوب فيه جزر اليونان وبحارها الجميلة الصافية. كان اليخت مجهزاً بطاقم كامل من طباخ وسفرجي وملاحين، وكان به غرف نوم تكفينا نحن الأربعة. كانت ببساطة أياماً ماتعة قضيناها نجوب الجزر اليونانية، ونرسو حيثما أردنا، وبالاختصار عشنا كما يعيش الأرستقراطيون. ثم من اليونان طرنا إلى المغرب ضيوفاً على الملك الراحل الحسن الثاني رحمه الله كانت تعليمات الملك لمسؤولي المراسم أن يفعلوا كل ما بإمكانهم ليجعلوا إقامتنا مريحة. ولم يقصّر الجماعة في تنفيذ أوامر الملك. كان عملاء الملك - وهؤلاء مثل محافظي المقاطعات في بلاد أخرى - كانوا يجهدون أنفسهم بتقديم كل ما يجعل إقامتنا ماتعة. وبلاد المغرب بالمناسبة من أجمل بلاد الدنيا، إذا عرف السائح كيف يختار الأماكن، ولا أتكلم عن بعض السائحين الذين يقصدون الدار البيضاء، ويقضون عطلهم يتسكعون في شوارعها ولعابهم يسيل عندما تقع أنظارهم على أي أنثى!!.

إن مدناً مثل فاس ومكناس وتطوان وأغادير ومراكش والرباط نفسها من أجمل بلاد الدنيا. وما يميز المدن والحياة المغربية هو أنك لا تزال تشاهد فيها نمط الحياة الاجتماعية

القديمة. يعني في فاس مثلاً كنّا نرى الصبيان وهم يحملون على رؤوسهم أطباقاً من الخشب وقد رُصَتْ فوقها أقراص العجين، ذاهبين بها إلى الأفران لخبزها، تماماً كما كنا نفعل في المدينة المنورة منذ زمن انتهى للأسف ولن يعود. ذهبوا بنا إلى غابة من الأرز قرب أفران، إنها أجمل متنزّه رأيته في حياتي؛ أشجار الأرز العملاقة، والبساط الأخضر الممتد تحتها إلى ما لا نهاية، وهناك عرفت من مرشدنا أن أرز لبنان جاء أصلاً من المغرب! ولا غرابة في ذلك فالغابة كانت شاسعة واسعة، وتزدحم بأشجار الأرز. لقد رأينا أرزة واحدة يحتاج جذعها إلى خمسة وعشرين رجلاً ليحيطوا به!!.

من المغرب سافرنا إلى إسبانيا عبر مضيق جبل طارق. كنت وقتها أمتلك شقة في ماربيلا، عندما كانت ماربيلا هي «الموضة» المكتسحة في تلك الأيام. أعترف أن زيارة ماربيلا كانت هي الأكثر تواضعاً في رحلتنا تلك؛ إذ لم نكن ضيوفاً على مليونير يوناني، ولا على ملك عربي، لكنني بالرغم من ذلك كنت أحس بالزهو والفخر أنني وفرت لصالح وزوجته - وطبعاً لي وزوجتي - رحلة جيدة. وبعد أن استقرّ بنا المقام في ماربيلا، أردت أن أسمع بعض المديح، وبعض عبارات الشكر، أو حتى أسمع صالحاً يعبر عن رضاه برحلتنا تلك. سألته: «ها يا صالح، ما رأيك في سفرتنا هذه إن شاء الله انبسطت؟» وبدلاً

من أن أسمع الجواب الذي كنت أتوقعه، وهو التعبير عن سروره البالغ، أجابني بشكل تلقائي سريع: «والله، عندي القريتين أحسن ألف مرة من كل الأماكن التي ذهبنا إليها، وكل الذي رأيناه وعشناه!!»

تكلمت كثيراً عن القريتين ولا أريد أن أكرر هنا ما قلته، لكنني أقول فقط إن القريتين هذه لم تعد إلا ذكرى مما كانت. اختفت الأنهار والجداول منها، واختفت بالتالي الأشجار والكروم، وأشجار الفاكهة، ولم يعد فيها إلا شوارع ترابية، تذروها الرياح، مما يجبر الزائر على الإسراع للاغتسال كلما سار في شوارعها التي لا يزال معظمها ترابياً. وبقدر ما أن أهل القريتين طيبين وكرماء واجتماعيين من الدرجة الأولى، إلا أن ما أكرهه فيهم هو أن شبابهم لم يتركوا طائراً يطير في هذه البلدة وحولها إلا واصطادوه. لقد أصبحت بلدتهم ميتة. لا تسمع فيها صوت عصفور. وأحب أن أكرر هنا أن الله تعالى عندما خلق هذه الدنيا وبثّ فيها ناسها، قدّر لكل شيء دوره، وكل شيء كان بحساب دقيق. فمثلاً العصافير تأكل الديدان التي تضر المزروعات، وخاصة تضر شجيرات دوالي العنب، فعندما اختفت العصافير عاثت الديدان بأشجار الكروم، فقتلتها. صاروا هناك يزرعون بعض أعواد شجرة الكرمة، التي تتصف بمرارتها، لعل وعسى أن تعيش. ولا زالوا يصطادون مئات

العصافير، ويبيعونها للمطاعم في لبنان. أزور لبنان في أوقات متفرقة، وأرفض تناول العصافير فيها احتجاجاً مني على الصيد الجائر لتلك الطيور الصغيرة. ولكن كما يقول المثل: «من داري عن فطيمة بسوق الغزل». لا أزال أنا أيضاً أزور القريتين، وأحبها وأحب أهلها، لكنني لا أستطيع المكوث فيها أكثر من بضعة أيام، ريثما أقابل من بقي حياً من أصدقاء الصبا؛ إذ إن القريتين التي ولدت وترعرت فيها لم يبق منها شيء الآن. وقد تعبت وأنا أدعوهم أن يكفّوا عن الصيد الجائر، ولكن ما من يسمع. لقد آذوا أنفسهم، والنتيجة أنهم فقدوا مقومات معيشتهم التي كانوا عليها، والتي تعتمد بعد الله تعالى على الزراعة. طبعاً الجفاف ظاهرة طبيعية عالمية، وقد جفّت أنهار وجداول وعيون الماء التي كانت تكثر في القريتين، كما جفّت أنهار وينابيع وبحيرات كثيرة حول العالم للأسف الشديد. زارنا ذات مرة الرئيس السوري بشار الأسد بعد مدة وجيزة من تقلُّده منصب الرئاسة خَلَفاً لوالده الراحل الرئيس حافظ الأسد. كان كتابي الأول «**ما لم تقله الوظيفة**» قد ظهر قبل مدة وجيزة، وعندما صعدت برفقة سمو الأمير سلمان أمير منطقة الرياض لمرافقة الرئيس بشار إلى جناحه في قصر الضيافة، قال الأمير للرئيس: هذا منصور الخريجي، وهو له صلة بكم؛ إذ إن والدته سورية. وقد أصدر حديثاً كتاباً عن حياته، وبه جزء كبير عن بلدة القريتين، وهي بلدة والدته التي ولد بها أيضاً.

أثار ذلك اهتمام الرئيس بشار، وطلب نسخة من الكتاب. أحضرته له في اليوم التالي، وكانت فرصة أن أتحدث معه قليلاً، ولم أضع الوقت إذ ذكرت له أن القريتين كانت بلدة خضراء غنية بأشجارها وفواكهها ومياهها، وأنها الآن أصبحت تعاني من الجفاف، وتمنيت على الرئيس أن يفعل شيئاً تجاه مكافحة تصحر البلدة. أجابني إن التصحر يغزو الآن كثيراً من المناطق في سوريا وغيرها، وليدلل على ذلك قال إنه في شمال سوريا بلدة يقال لها البحيرة، سميت كذلك لأنه كان بها بحيرة مياه عذبة كبيرة، إلا أنها الآن جفت وأصبح الماء ينقل للبحيرة في صهاريج محمولة! لكنه قال إنه إن شاء الله يبذل هو وحكومته ما يستطيعون لمعالجة الجفاف.

يقال عمن يحب إنساناً أو شيئاً لا يستحق بنظر الآخرين ذلك الحب إن المحبة من الله. وهذا ينطبق على الأخ صالح؛ لأنك لو بحثت عن أي مبررات لحب القريتين فلن تجدها؛ فلا فنادق ولا مطاعم ولا متنزهات، اللهم إلا ما بقي من بقع خضراء من الزمن القديم، لكنّ فيها شيئاً يصعب على غير المحب - والحب أعمى كما تعرفون - أن يدركه وهو هواء القريتين المنعش الصافي، الخالي من ملوثات المدن التي أصبحت تشكل الأخطار الكبيرة على ساكنيها. أنا أيضاً لا أذكر أنني أستنشق أحلى ولا أنقى من هواء القريتين، خاصة إذا لم يجلب معه بعض ذرات التراب. وأكبر مظاهر توسيع

الصدر في هذه البلدة هو أن يجتمع شبابها على دكة أمام دكان أو منزل، في الشارع يتناولون القهوة والشاي، ويتحدثون أحاديث لا تنتهي! ولا تظن أن مثل هذا النمط المعيشي هو قصر على القريتين، كلا، إنه مظهر حياة في كل القرى والبلدات السورية دون استثناء تقريباً. فقد سلكت طرقاً عديدة من دمشق أو حمص إلى القريتين، ولم أمرّ في أزقات وطرق تلك القرى والبلدات إذا كان الوقت عصراً أو مساء إلا وأجد الرجال والنساء مجتمعين أمام بيوتهم أو دكاكينهم الصغيرة يسمرون و«يسولفون».

ولا أزال أذكر كم كنت وأنا صغير لا يتعدى عمري بضع سنين أبكي أمام والدتي، وهي تجلس أمام باب دارنا مع جاراتها وصديقاتها، أبكي لكي تدخل البيت، وكأنّ بيتنا كان قصراً منيفاً، ولم يكن سوى غرفة واحدة تلفّها العتمة، كما يذكر الذين قرؤوا كتابي السيرة.

أعرف أن الحديث عن باقي الأصدقاء سوف يدخلني في بعض الإحراجات لو أتيت على ذكر بعضهم ولم أذكر الكل، ولكن سأتكلم عن الأدباء والأكاديميين منهم فقط؛ فأنا أعتبر نفسي من المحظوظين الذين حباهم الله بمجموعة ممتازة من الأصدقاء الأحباء الطيبين. ثم بكل صراحة أعتقد أنني أتميز بعض الشيء بأني مهووس بحكاية الصداقة والأصدقاء، تقابل

كلمة مهووس بالإنجليزية كلمة Obsessed - اسألوا عنها الأخ الدكتور **عزت خطاب** الذي أعلن دائماً أنه الأقرب لي بين أصدقائي. وسوف أقتصر هنا على ذكر الأصدقاء الذين زاملوني في الدراسة وامتدت حياتي معهم على مدى سنين عديدة صرت أخشى أن أذكر عددها! جاء عزت يوماً إلى الدكتور منصور الحازمي حزيناً كاسف البال، فسأله منصور عن سبب حزنه وأجاب عزت أنه قادم للتو من الطبيب الذي وصف له حبوب علاج، وأوصاه أن يأخذ كل يوم حبة طيلة حياته، سمع منصور هذا وضحك عالياً وقال لعزت: «وهل هذا يزعجك إلى هذا الحد؟ وكم تعتقد أنك ستعيش؟ اطمئن فسوف لن تضطر إلى تناول حبوبك هذه لمدة طويلة،» وضحك عزت بدوره ونسي مرضه.

كنت تكلمت عن **عزت** في كتابي الأول وأزيد الآن أن هذا الرجل أظنه خُلق ليلتهم العلم ويُعَلِّمه. حرم نفسه ونحن في الجامعة من معظم ما كنا نحن زملاؤه نُمَتِّع أنفسنا به - كان ديدنه الكتاب، حتى وهو في المراحل المدرسية الأولى. جاء إلى جامعة الملك سعود مع الدفعة الثانية من السعوديين بعد سنتين من إنشاء الجامعة، وكان هذا الشيء الطبيعي له. ولا يصلح عزت لشيء آخر غير أن يكون أستاذاً جامعياً جهبذياً. حتى ولو كنا نحن زملاءه الأكاديميين لا نكاد نتقن شيئاً آخر غير عالم

الكتب والبحث - أنا طبعاً خرجت عن الخط بعض الشيء وفي ظروف معينة - إلا أن عزت يُجَسِّد تماماً مهنة التدريس. تصيبه أحياناً نوبات طارئة من مراجعة النفس فيثور ثورة لا تستمر نصف دقيقة، يذكر فيها نفسه أنه لم يعمل لنفسه شيئاً طيلة حياته العملية. هذه النوبات تحصل غالباً أثناء وجودي معه، فأعود أطمئنه أنه يكفيه فخراً أنه بث المعرفة الراقية والثقافة العالية لمئات وربما لآلاف الطلبة أثناء سنوات عمله الطويلة في جامعة الملك سعود. عدا أيضاً عن كتب النقد والنقد المقارن التي ألَّفها. ولا أنسى أن أذكِّره في كل مرة أنه لا يصح له أن يطلب أي شيء أكثر من هذا. وأختم غالباً بالقول: «هل تريد يا عزت أن تنهب. احمد ربك فمع كل مجدك الأكاديمي وسنوات عملك الطويلة فأنت أيضاً تمتلك بعد أن تقاعدت بيتاً في جدة تزيد مساحته على مائتي متر!».

أمتع لحظات حياتي تكون عندما أجتمع بهؤلاء الأصدقاء. ولكن لاكتمال المتعة يجب أن يكون مع الحاضرين الدكتور **أحمد خالد البدلي**، فوجود أحمد البدلي يجلي دون أدنى شك الهمَّ عن أي قلب حزين. أنه جمع الأدب والظرافة وسرعة البديهة والقفشات الحاضرة دائماً عندما يحتاجها. لكن ماذا أقول وأزيد. لقد كبرنا كلنا الآن وطبعاً كبر أحمد أيضاً وأصبح بدلاً من تدفق نشاطه وجدله وقفشاته أصبح في بعض الأحيان

يلتزم جانب الصمت في بعض اجتماعاتنا، ولكن لحسن حظنا في بعض اجتماعاتنا فقط وليس في كلها. أشتاق له عندما يغيب عني كثيراً وأبدأه كلما اجتمعنا بالعتب واللوم لبخله في الاتصال بي وجوابه دائماً واحد لا يتغير «والله معك حق، ووالله يا أبا نزار لك العتبى حتى ترضى». ثم نفترق ولا أعود أسمع منه كثيراً ونتقابل مرة ثانية بعد أسابيع أو أكثر من الأسابيع وأبدأ بلومه ويكرر قوله إن لي العتبى حتى أرضى.

منصور الحازمي أصبح الآن من كبار أدباء ونقاد الأدب في المملكة. وكما هو معروف فقد حاز على جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب وهو أهلٌ لها. أصبحنا نحن باقي أصدقائه لا نراه كثيراً؛ فهو مطلوب دائماً في الدوائر الأدبية، وبرنامجه حافل في الأسفار والندوات ونوادي الأدب. منصور شاعر جيد أيضاً ولو كان ذلك ربما لا يعجب الأستاذ عابد خازندار الذي قال عنه إنه ليس أكثر من شيخ هرم يعتقد أن قريحته تفتقت عن ما يظنه شعراً بعد أن بلغ من العمر أرذله!.

من الأصدقاء الذين يمتلئ قلبي بحبهم الأستاذ **عبدالله الشهيل**. عبدالله رجل ولد أديباً، فهو حتى عندما يتكلم بموضوعات عادية يستخدم العربية الفصحى! وله الحق في ذلك فهو أديب ممتاز ألَّف عدداً من الكتب في الأدب والتاريخ وكان كما هو معروف مُوَكَّلٌ بالشؤون الأدبية والصحفية عندما

كان يعمل مع الأمير فيصل بن فهد رحمه الله في رعاية الشباب. كما عمل لمدة أيضاً رئيساً لنادي الرياض الأدبي وكانت مدة رئاسته غنية بالإنجازات الأدبية المميزة. أراد يوماً أن يحصل على درجة الدكتوراة في الأدب، لكنه أعلن العصيان على الدكتور الحازمي ودكتوراً آخر كان من المفروض أن يشرف الاثنان على رسالته قائلاً لهما إنه لا يحتاج لأحد كي يمنحه درجة الدكتوراة، فهو بمؤهلاته الأدبية الفنية ليس بحاجة إلى شهادة الدكتوراة؟. وأكثر ما يميز عبدالله الشهيل أنه ما من موضوع يثار في سهراتنا ومهما كان فحوى الموضوع المثار إلا وينبري عبدالله ليؤكد أنه يعرف عن الموضوع أياه أكثر من أي واحد من الحضور. يذكر ذلك بخفة ظل وعفوية تجعل قوله مقبولاً دون تحفظ.

لو حاولت أن أذكر أصدقائي كلهم وأعدد صفات كل واحد منهم لما انتهيت؛ ولهذا فأنا أذكر لجميعهم محبتي وتقديري واعتزازي بهم، وما ذكرت إلا بعض الذين عشت حياة طويلة معهم وبهم.

*****

obeikandl.com

عمل الشباب والصحافة

لماذا أصبح منظر شاب يعمل بيديه بمهنة شريفة حرة يثير اهتمام الصحف، لدرجة أن إحداها صورت شابا سعودياً وهو منبطح تحت سيارة يغير زيتها وكأن المنظر آت من عالم آخر، وكأن السعودي أكبر من أن يعمل عملاً مثل تغيير زيت السيارة؟ كيف وصلنا بسرعة إلى مثل هذه المفاهيم، التي امتنعت ولعقود طالت أن تعترف بالواقع، وتتساير مع واقع الحياة؟ هل السعودي خلق من طينة غير طينة بقية البشر؟ وهل إذا غَيَّر زيت سيارة وغَيَّر إطار سيارة وعمل ميكانيكيا، هل هذا يثير الغرابة؟ إذا كان ذلك كذلك فما هو العمل الذي يناسب الشاب السعودي؟ وهل تلام صحافتنا التي تركت الحرية فيها لمحررين لم يعركوا الحياة وتعركهم، بل وليس لديهم حظ كبير من حس الواقع الفعلي للحياة، وبالتالي فهم لا يحاسبون على ما يكتبون طالما هم تجنبوا بعض الأمور التي لا يشجعون على الخوض فيها. لقد تركت رئاسات التحرير لهم الحبل على الغارب يختبرون في الصحافة مهاراتهم البدائية، ثم يأتي أحدهم ويصور لنا شاباً يعمل تحت سيارة، ويرى أنه خبر يستحق الكتابة عنه!.

إن الكلمة المكتوبة قد تكون أشد ضرراً من الرصاصة إذا هي قيلت في غير مكانها، ولو كان ذلك بكل حسن نية. ولا

أقصد في كل هذا أن أجعل المسألة وكأنها ذنب كبير جنته الصحيفة أو محررها، وكان يكفي أن يذكر المحرر أن الشباب السعودي بدأ يتجه إلى الأعمال المهنية، وأن هناك كثيرين مثل ذلك الشاب أخذوا الطريق نفسه، ونجحوا. وعندها قد يكون أثر الصورة والمقالة أكثر فعالية من كلمات الإعجاب والمديح التي كالتها الصحيفة لشاب كان يقوم بعمل عادي، يقوم به آلاف الوافدين من الشباب، ويجنون من ورائه أموالاً طائلة.

هناك أمر آخر تطالعنا به صحافتنا بين حين وآخر، وهو نشر صور وحكايات عن شباب قاموا باختراعات أو حسنوا من أداء مخترعات حديثة موجودة. لكن للأسف أيضاً لا تتعدى المسألة النشر عن المخترع الجديد، ولا نعود نسمع عنه شيئاً. حبذا لو تُشكَّل هيئة ما من بعض الخبراء والعقلاء، على أن يكونوا من الغيورين على مصلحة البلاد، وممن ليس لهم مصلحة معينة في ما يدرسون ويبحثون عن جدوى لمثل تلك الأفكار والمخترعات، والخروج بها من فوق الورق إلى عالم الواقع؛ لأن أي شخص يستورد سيارات مثلاً لا يسعده أن يأتيه شخص آخر نكرة يعلن أن بإمكانه تطوير محرك سيارة ليستهلك من الوقود نصف ما يستهلك المحرك الذي يأتي من بلد المصنع. ربما كان ضرب المثل بالسيارة غير دقيق؛ لأن إيجاد محرك بديل على أيدي شباب من هذه البلاد قد يكون ما زال

مبكراً، ولكن هناك أمثلة أخرى يمكن الاستشهاد بها مثل كل الصناعات التقليدية التي اندثرت إثر هجمة المستورد. لو كان هناك من البداية نقابات للصناعات التي كانت يوماً تقليدية، ولو كان هناك بعض الحماية لها، ولو استعانت تلك الصناعات بما يوجد في العالم اليوم من تقنيات عالية، لكان حالها اليوم أحسن كثيراً مما هي عليه الآن. لقد اندثرت فعلاً معظم الصناعات الوطنية التي كنا نعرفها في بلادنا وأصبحت جزءاً من التراث.

نحن العرب - وأقصد عرب هذه الأيام - نحطم الحلم. ما معنى هذا؟ معناه أن طريق التقدم والتطور، طريق الانتقال من حال إلى حال يبدأ بفكرة. هكذا حكى لنا القدماء، وهكذا قرأنا في الكتب. إن من طبيعة الإنسان أن يحلم، وأقصد بالحلم هنا كما هو واضح كل التطلعات والآمال التي نفكر ببلوغها، عندما نترك العنان لخيالنا ليسمو فوق واقعنا المادي. تحلم بأنك تطير مثل الطيور، وتحلم بالقضاء على الأمراض، وتحلم بالقضاء على الفقر، وتحلم بأن تقطع المسافات بين نقطة وأخرى بأسرع مما هو واقع الحال، كل التطور الذي حققه الجنس البشري بدأ حلماً. عندما فكر... أن يتنقل من مكان إلى مكان بأسرع مما يستطيعه الحصان أو العربة التي تجرها الأحصنة اخترع السيارة. كانت بدائية في البداية ثم تطورت. وعندما كان

الأخوان رايت يتطلعان إلى السماء، ويريان الطيور تحلق في الفضاء، صمّما على صنع آلة تطير بالإنسان. أول طائرة صنعاها استطاعت أن تحلق لمسافة لا تزيد على طول الطيارة البوينج العملاقة ٧٤٧ التي أصبحت الآن شيئاً مألوفاً لا يثير الفضول. ولم يقف الإنسان عند ما وصل إليه من علوم وفنون واختراعات أصبحت لا تدهشنا الآن. لم يبق أمام الإنسان الآن إلا الوصول إلى الكواكب الأخرى، وها هو قد بدأ بالوصول إلى القمر، وخياله يلح عليه في الخروج لما وراء المجموعة الشمسية التي نحن جزء ضئيل جداً منها.

ولكن أين نحن العرب من كل تقنية العصر الحديث؟ إننا أمة مستهلكة فقط؛ فنحن نستورد ما يصنعه غيرنا، ولا نسهم في تطور العالم بأي شيء ذي بال. نحن جميعاً أعني الأمة العربية نستورد كل شيء، ولذا فنحن عالة على الآخرين، فلو منعت عنا مثلاً وسائل المواصلات الحديثة التي اعتدنا عليها بكل آلياتها واختراعاتها، لرجعنا إلى حياة القرون الوسطى. طبعاً حدوث مثل هذا بعيد الاحتمال طالما نستطيع شراء التطور، ولكن نحن للأسف لا نجد حرجاً عندما يصنفوننا مع الأمم المتخلِّفة.

قيل كلام كثير وكتب كلام كثير عن العقل العربي، والكسل العربي، وميل العربي عموماً إلى التواكل والمقدرة على تقبل ما

تأتي به الصدف، دون محاولة لتغييره. وقد يكون رد ذلك عند بعض الناس أن الله قدَّر الأرزاق والآجال ونمط الحياة، وكل ما يتعلق بالمخلوق من لحظة تكوينه. وهذا فيه خطأ كبير، وتواكل نهى عنه الدين الحنيف، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية كثيرة في الحث على العمل والسعي خلف الرزق. قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»، وطلب العلم طبعاً ليس للمباهاة، ولكن للاستخدام فيما يعود على صاحبه بالخير والنفع، ولا أحتاج إلى دلائل للتأكيد على أن الإنسان خُلق ووُضع على هذه الأرض ليعمرها، ولو كان الهدف غير ذلك لاندثر الجنس البشري. وقد قال كثير من العرب أنفسهم: «إن أمةً لا تأكل مما تزرع، ولا تلبس مما تحيك، لا تستحق الحياة». لقد ظهر من بين العرب أنفسهم من يقول: إن العربي ماهر جداً في خداع نفسه. فهو يحكي فقط، ويظل يحكي ويحكي، حتى يصدَّق نفسه، وحتى يظن على الأقل أن الكلام يغني عن العمل. قال عبدالله القصيمي: إن العرب ظاهرة صوتية ومن يرى حال العرب اليوم لا يشك أن القصيمي نطق بالحقيقة. عندما حاربت مصر إسرائيل في عام ١٩٦٧ ووقفت معها بعض الدول العربية الأخرى، كان صوت المذيعين يلعلع ويفاخر بقوة السلاح، والقوات الضاربة والصواريخ

والطائرات، حتى ظن باقي العرب أن إسرائيل لن تصمد يوماً واحداً. لقد تساقطت وقتها طائرات إسرائيل مثل أوراق الخريف، ولكن بالكلام طبعاً، وما حصل أن الدولة الصهيونية انتصرت انتصاراً كاسحاً على العرب، ما زالوا يعانون منه إلى اليوم، وإلى ما شاء الله.

وكما حدث في مصر، طلع على العرب حاكم عربي آخر هو صدام حسين، وراح بكل غبائه وعنجهيته يفاخر بجيشه وتقدمه التكنولوجي، ويهدد إسرائيل بحرق نصفها - لقد تواضع قليلاً ولم يقل كلها - حتى صدَّقه بعض العرب. ولكن بدلاً من أن يحرك جيشه نحو إسرائيل، اتجه إلى الكويت، وكانت الكارثة التي يعرفها الجميع. هذا بعد حرب مريرة ضد إيران اُستهلكت فيها ثروته، وثروة العرب الآخرين، وأُفني ملايين من العراقيين. ولم يكتفِ بهذا، بل راح يتشدق بحيازته لأسلحة دمار شامل، وهو في الحقيقة، وكما ثبت بعد أن طاحت الفأس بالرأس كما يقول المثل، لم يكن يملك إلا التشدق بكلمات جوفاء لا معنى لها، عندما راح يعدد أسماء جيوشه وقواته، مثل: النشامى والمخابرات والمغاوير وفدائيي صدام وأبطال حزب البعث. كل هذا بينما كان شعبه يتضور جوعاً بعد الخراب الذي جلبه هذا الدكتاتور الغبي، حتى أصبح شعبه لا يجد لقمة العيش - حرفياً - بينما هو وزبانيته يكنزون ملايين الدولارات،

ويعيشون حياة متفسخة منحلة. وطبيعي أنه عندما جد الجد، فرّ صدام وأعوانه مذعورين، وحلت كارثة جديدة بالشعب العراقي المسكين. ولكن هل قُدِّر للعرب دوماً أن يكون هذا وضعهم وهذا موقعهم من خريطة سكان المعمورة؟ هل ثمة أمل في انطلاق تلك الشرارة التي تخرجهم من هذا السبات الذي طال أمده حتى أصبح صفة ملازمة لهم؟ إن العرب يعيشون الآن عصر ذلهم وقهرهم وهوانهم على الناس. لم يعد أحد يحفل بهم، ولم يعد لهم صوت مسموع في العالم. أصبحوا أذلاء مقهورين، ولم تعد بقية العالم تلتفت إلى أوضاعهم وهمومهم ومصائبهم وهزائمهم وذلّهم. بل لقد هانت أنفس العرب عليهم هم، حتى لم تعد جراحهم تؤلمهم. هذا هو حال القوم الذين قال الله فيهم: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾. إن السر بالفقرة الأخيرة؛ الإيمان بالله هو ما يفتقر إليه العرب الآن، مع كل أسف. لا يمكن لأحد يؤمن إيماناً صادقاً بالله إلاّ وتأبى عليه نفسه أن تذل. إن ما يميز أسلافنا عنا هو أنهم آمنوا بالله، وعملوا بإيمانهم، ونحن آمنا باللسان، ولم تؤمن قلوبنا بصدق. وإلا فكيف نفسِّر الضعف والتخاذل والتواكل وعدم المبالاة، بل حتى والجبن والبعد عن المغامرة وعن دروب الشجاعة، والركون إلى الحياة الكسولة المترفة أحياناً، التي لا تخلف إلا أناساً مترهلين متعفنين، لا تهمهم إلا أنفسهم وملذاتهم الرخيصة؟

*****

obeikandl.com

حال المسلمين اليوم

لطالما فكرت بالحال الذي وصل إليه المسلمون في العالم، والعرب منهم خاصة، وهم الذين شرَّفهم الله تعالى بحمل رسالته السماوية، وبعث خاتم أنبيائه منهم. لماذا وصلنا إلى هذا المستوى المتدني في جميع المجالات؟ لماذا هُنّا على باقي شعوب العالم، وأصبحنا مضرب المثل في التخلف والجهل وقلة الحيلة؟ وهل نحن العرب غير قادرين مثلاً على التطور والإصلاح والخروج من الكبوة التي طالت، وحطمت آمالنا وطموحاتنا، وكسرت كبرياءنا، وجمدت حركتنا؟ الجواب على الاستفهام الأخير هو بالنفي طبعاً؛ لأن العرب أثبتوا في الماضي قدرتهم على بناء حضارة وإمبراطورية، وهم الذين نشروا بقيادة رسولهم صلى الله عليه وسلم الإسلام في العالم. ولكن لماذا خمدت تلك الجذوة التي كانت تشتعل في أفئدتهم، وتقودهم إلى المعالي؟ لا أنسى عندما جاء رئيس وزراء ماليزيا السيد مهاتير محمد لاستلام جائزة خدمة الإسلام التي منحته إياها مؤسسة الملك فيصل الخيرية، أقول: لا أنسى كلمة قالها أثناء إلقاء كلمته عندما تسلم جائزته؛ لقد قال: «عندما وصلنا المسلمون الأوائل أسرعنا باعتناق الإسلام؛ لأننا وجدنا بين ظهرانينا رجالاً تركوا متاع الدنيا وراء ظهورهم، كانوا رجالاً

أشداء شرفاء شديدي التمسك بعقيدتهم الصافية. لم يظلموا أحداً، ولم يعتدوا على أحد، بل كان همهم نشر عقيدة التوحيد الخالصة بالكلمة الطيبة والهدف المتجرد إلا من نيل رضا الخالق سبحانه وتعالى، ولم نتردد في اعتناق الإسلام؛ لأننا كنا نود أن نصبح مثلهم. أما لو كان مجيء المسلمين إلى بلادنا تأخر إلى أيامنا هذه فلن نكون قد اعتنقنا الإسلام». وقد قال الرجل ذلك وهو يشعر بالحسرة على ما آل إليه حال المسلمين. لقد ذهب جوهر الإسلام، وبقيت منه طقوس تؤديها الأجيال المتتابعة تقليداً لما رأوا عليه آباءهم. ولكن كيف يمكننا تغيير ذلك؟ قطعاً هناك صحوة إسلامية الآن تعم العالم الإسلامي، ولكنني لا أظنها هي الصحوة المطلوبة. ولننظر فقط إلى ما أنتجته هذه الصحوة، ولنتذكر الشباب اليافع الذي غُرِّر بهم باسم الصحوة وباسم الدين، وانتشروا في أصقاع الأرض ينشرون الخراب والدمار. لم تكن تلك الصحوة خالصة لوجه الله تعالى أوْ لم يكن بعض من برزوا في أيامنا هذه يعملون لصالح العقيدة والدين الصحيح، بل هم ركبوا الموجة تدفعهم أهواء بعيدة كل البعد عن مسار التصحيح؛ كان هدفهم التسلط على حكوماتهم الشرعية، واغتصاب الحكم لأنفسهم، وراحوا يدفعون بأتباعهم باسم الدين لاغتيال كل إنسان يقف في طريق أطماعهم، ويكشف حقيقة أهدافهم. لقد أتقنوا غسيل أمخاخ

أتباعهم من الشباب اليافع، وأرسلوهم في أنحاء العالم، يقتلون، ويخربون، وينشرون الرعب والدمار والخراب أينما حلّوا.

*****

obeikandl.com

obeikandl.com

كاريكاتير الجريدة الدنماركية

أكتب هذه المذكرات وقضية الرسومات الكاريكاتورية التي رسمها إنسان غربي جاهل، حاقد على الإسلام، وعلى نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، التي أظهره فيها وقد وضع فيه كل العيوب والرذائل التي يسبح فيها المجتمع الغربي ذاته. رسمها بحجة حرية الصحافة والتعبير، ولا أدري كيف سمح لذلك السفيه مجتمعُه الذي يدعي المدنية والرقي إهانة رمز الإسلام وخير خلق الله أجمعين. والذي هو أحب إلى كل مسلم من أمه وأبيه ونفسه والناس أجمعين؟ إن هذا المتحدي الوقح لم يكن ليجرؤ على ما فعل لولا أن هان المسلمون والعرب على الناس. رحم الله أيام العز والمجد، عندما كانت امرأة واحدة تستنجد بخليفة المسلمين، فيجند لها جيشاً لنجدتها وتأديب المعتدين. أحب أن أؤكد هنا لمن قد يقرأ هذه المذكرات أن الإنسان الغربي نفسه لا يمكن ولن يتقبل إنسان الشرق الذي يدين بالإسلام. وتاريخنا مع الغرب لا يزال حياً قائماً، نذكره ونذكر حروبهم ضدنا، واحتلال بلداننا قديماً وحديثاً، ونتذكر تآمرهم علينا، وتلاعبهم بأقدارنا، وكذبهم وخداعهم. ولم تستقلَّ بعض بلداننا العربية إلا منذ عهد قريب، فهم المعتدون دائماً، وهم الذين سرقوا ثرواتنا وقسموا بلداننا، وهم الذين

أثاروا النعرات الطائفية في بلداننا، ومن كان يعتقد أن نفوس الغربيين يمكن أن تهادننا، وأنهم سيتوقفون عن نسج المكائد ضدنا، فهو واهم واهم. وأين هي الحرية التي يتشدقون بها، وها هو رئيس أمريكا يحتل بلداً عربياً، ويهدد، ويثير النزاعات ضد الدول العربية الأخرى. وأين هي الحرية التي يتشدقون بها ويتهموننا نحن العرب بأننا نستعبد الناس؟ هل شاهد أحد منكم الأفلام التي ينتجها الأمريكيون أنفسهم عن تجارة الرقيق التي مارسوها لعشرات السنين ضد الشعوب الإفريقية السوداء؟ كانت سفنهم تذهب إلى هناك، وكانوا يجمعون الأفارقة رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويختارون الأقوياء الذين يتحملون رحلات العذاب في السفن المتجهة إلى الغرب. كانت رحلات العذاب أقسى مما قد يتصور أي إنسان. ولا أدري كيف استحملت قلوب أولئك العلوج - حقاً إنهم علوج - مشاهدة أولئك الأفارقة المساكين المسلسلين إلى بعضهم بعضاً ورميهم في قاع السفينة دون ماء أو زاد طيلة الرحلة، ومن يموت من أولئك المعذبين يبقى مسلسلاً إلى الأحياء حتى تصل السفينة، ويؤخذ الأحياء منهم إلى سوق النخاسة مباشرة، ويباعون بأرخص من أسعار الماشية؛ لأن العرض كان أكثر من الطلب، والسفن غادية رائحة إلى إفريقية، لتحضر المزيد من العبيد.

كان كبار السن من المزارعين الأمريكين الذين يملكون العبيد يستخدمون الأطفال منهم أيام البرد والصقيع، فيجعلون

الأطفال الصغار يستلقون أرضاً على بطونهم تحت أقدام السادة البيض ليدفئوها لهم!!.

ومتى تحرر العبيد في أمريكا - إن كانوا تحرروا فعلاً؟ منذ أيام قليلة فقط ماتت المرأة السوداء التي تحدت العنصرية الأمريكية الرعناء والتي كانت تفصل بين البيض والسود في كل مجالات الحياة، حيث في (أوتوبيسات) النقل العام مثلاً يركب السود في مؤخرة (الأوتوبيس)، وعليهم حتى النساء أن يتركوا أماكنهم إذا جاء أبيض ولم يجد له مكاناً !! ويتكلم السيد بوش عن الديموقراطية التي جاء يقيمها في العراق! لا أود هنا أن يأخذني الحماس وأعمم ما أقوله على كل الغربيين، ولكنّ مرة أخرى إن نفسية الرجل الأبيض بصفة عامة لا يمكن أن تعقد صلحاً صادقاً مع غير البيض، فهم يعتبرون أنفسهم أرقى من كل الأجناس الأخرى عرقاً، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولا أظن إلا أن حقدهم علينا سيبقى حياً دائماً. وإلا فما نوع الشيطان الذي استولى على عقل ذلك المحرر في الصحيفة الدانماركية وجعله ينشر رسومات مُسيئة إلى نبي المسلمين عليه الصلاة والسلام، التي طعنت المؤمنين في أقدس رمز عندهم!.. لماذا لم يرسم ذلك المعتوه أحداً من أنبياء اليهود مثلاً؟ ولو أننا كمسلمين نجلّ ونقدّس ونصلّي على كل الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم أو أخبرنا رسولنا صلى الله عليه

وسلم عنهم. أقول لماذا لم يرسم ويستهزئ بأحد من مؤسسي دولة إسرائيل؟ أو لماذا لم يسخرْ من ادعاءات اليهود الكاذبة عن محرقة هتلر؟ أو يسخر مثلاً من ادعاء اليهود أن الله أعطاهم أرض فلسطين أرض الميعاد كما يدعون؟ لأنه لو اقترف «جرماً» كهذا فإنه سيطرد من الجريدة في اليوم التالي. لكن هذا الأهوج أمِن العقاب من ناحيتنا، فقلّ أدبه.

ولا يحتاج الأمر في الحقيقة أن نؤكد أن اليهود الآن وخاصة في أمريكا وأوروبا يرعبون الناس، ويستطيعون تحطيم أي إنسان يجرؤ على قول الحقيقة عنهم. وهناك قضايا مثل حكاية بول فندلي، الذي يبدو أن الكيل طفح معه، فكتب كتابه المشهور (من يجرؤ على الكلام) وكانت النتيجة أنه فقد مقعده في الكونجرس، وحصل مثل ذلك لماكلوسكي؛ رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، الذي اقترف ذنباً لا يغفره اليهود عندما قابل ياسر عرفات، وكان مصيره مثل مصير فندلي، وكذا شارل بيرسي المعتدل، الذي كانت كل جريمته أنه نصح الإدارة الأمريكية أن تتعامل بإنصاف فيما يتعلق بقضايا فلسطين والعرب عامة، فكان مصيره مثل مصير صاحبيه. ولعلكم تذكرون السيد جارودي الأديب والفيلسوف الفرنسي الذي اعتنق الإسلام. لقد عانى هذا الرجل الأمرّين من اضطهاد الصهاينة له؛ لأنه شكك فقط في عدد الذين قتلهم

هتلر في ألمانيا، والذي يقدره اليهود بستة ملايين إنسان، وهو كذب. واليهود يسيطرون فعلاً على أقدار الناس بوساطة سيطرتهم على حقول الإعلام والسينما والمؤسسات المالية. لم يتركوا لأحد شيئاً. أذكر أن الممثل الأمريكي الراحل مارلون براندو في أواخر حياته خطر له ولا أدري لماذا أن يظهر على شاشات التلفزيون ويتهم اليهود بأنهم يسيطرون على أقدار الناس في الولايات المتحدة، وانفتحت عليه أبواب جهنم. لم يتورع المسكين وهو رجل كبير وقد صارت مهنته كممثل وراءه، لم يتورع عن أن يسرع بعدها بأيام ويعلن وهو يبكي التوبة مما قاله، ويستجدي السماح، وأنه لن يعود لمثلها مرة أخرى. ومات وهو على توبته!

كنت أتحدث عن الرسوم الكاريكاتورية التي نشرتها جريدة دنماركية. لقد هان المسلمون على أنفسهم، فهانوا على الناس. ولا آتي بجديد إذا قلت: إن الدنيا دائماً تدير ظهرها للضعيف المغلوب على أمره، ومن ظن غير ذلك فهو واهم. الشعوب الضعيفة مضطهدة، والتاريخ مليء بالأمثلة.

والتاريخ مليء بحكايات الظلم والاعتداء. ماذا فعل المسلمون لهولاكو عندما هاجم بلاد المسلمين واستباحها، وقتل آخر الخلفاء العباسيين ومعظم أهل بغداد، وعاث فيها من

الفساد ما لم يحدث في تاريخ الأمم قبله؟ فعل مثل ذلك أيضاً في دمشق، وباقي مدن الشام، إلى أن قيض الله للمسلمين الملك الشجاع الظاهر بيبرس البندقداري، الذي أعترف أنني لا أعرف عنه سوى ما شاهدته منذ مدة قصيرة في مسلسل جميل عنه. لقد أعجبت بهذا الإنسان البطل لدرجة أنني الآن أبحث عن كتب عنه؛ لأعرف عنه المزيد، ولم أنسَ نفسي كما نسيتها مرات عشت مع المسلسل، وكأنني رجعت في الزمن إلى الوقت الذي عاش فيه هذا البطل، الذي لم يكن عربياً أصلاً، بل مملوكاً يباع ويشترى. رحم الله الملك الظاهر بيبرس الذي ذكرني بالمعتصم بن هارون الرشيد الذي جهز جيشاً ليلبي نداء امرأه مسلمة لطمها أحد علوج الفرنجة، فصاحت صيحتها المشهورة «وامعتصماه»، لقد عمل الظاهر بيبرس تقريباً الشيء نفسه عندما أتته امرأة مستنجدة به لإنقاذ ابنتها التي اختطفها أحد قادة الفرنجة، فخلصها الظاهر بيبرس وقتل مختطفها كما يحكي المسلسل. شكراً لطاقم المسلسل والقائمين عليه، فلقد مكّنوني أن أعيش الحلم كل ليلة، وأستمتع أيّما استمتاع بحواراته وأحداثه البطولية وأن أنسى نفسي ولو لدقائق وأعيش مع شخصيات المسلسل وحواراتهم وأفعالهم وكأنني عدت إلى الأيام التي عاشوا فيها، أشاهد أحداث حياتهم وحروبهم وأيضاً مؤامراتهم وصراعاتهم ضد بعضهم بعضا،

والعجيب أن معظم أبطال المسلسل كما ذكرت كانوا مماليك، بيض الله وجوههم، ورحمهم رحمة واسعة.

هكذا كان تاريخنا المجيد، الذي لا نعمل الآن أكثر من البكاء عليه، وأنا مثل غيري أؤمن أن أي إصلاح جادّ لحال العرب والمسلمين لا يمكن أن يكون فعالاً إلا إذا بدأ هذا الإصلاح من القمة، يعني من الحاكم، والسبب في ذلك أن بلاد العرب والمسلمين لا يحكم معظمها بوساطة شعوبها مثل مجالس البرلمانات، ومجالس الشورى، ولكن تحكم مباشرة من رأس الدولة، وهذا إن لم يكن صالحاً أو قادراً فبطبيعة الحال تسوء أحوال البلاد، كما هو حاصل الآن، ولننظر فقط إلى بعض البلاد التي أتى حكامها على ظهر دبابة كما يقولون؛ لندرك مدى تراجع أحوالها. وأنا لا أدعو هنا إلا أن يقيّض الله لبلاد المسلمين حكاماً أكْفَاء عادلين كي تنصلح أحوالهم، ولا تهمني في شيء مسألة الديموقراطية والانتخابات وغيرها. ولمن يعترض على هذا ولو في سرهّ فليتذكر كيف صلح حال المسلمين عندما حكمهم قادة عادلون أكْفَاء، والمثل الأعلى في هذا هو رسول الله ﷺ الذي كان نبياً وقائداً وسياسياً ومخططاً، يمتلك كل الصفات التي جعلته ينجز ما أنجز بأمر ربه تبارك وتعالى.

لقد استبدلنا بكل ذلك الآن مقدرة خارقة على الحكي فقط. لقد صرنا نؤمن، أو ربما نظن أننا نؤمن، وذلك لعجزنا عن العمل، أنّ الحكي والصياح يقوم مقام العمل والأفعال. يجتمع زعماء العرب ويصلون تباعاً إلى مقرّ اجتماعاتهم بطائراتهم الخاصة الفخمة، مع زفة من المصورين والإعلاميين، الذين يصوّرون كل حركة ولفتة، ويقرّبون «مكروفوناتهم» يلتقطون كل كلمة يتلفظ بها القادم الكبير، وعلى الجانب الآخر تجد مذيعيين آخرين يهدرون بأصوات خطابية جهورية متهدجة عن المجد القادم، والإنجازات التي ستهز أركان الدنيا. ثم يجتمع القادة اجتماعات علنية وسرية، ويصدرون بياناً ختامياً يكون معداً سلفاً من قبل وزراء خارجياتهم قبل أن يصلوا. ويرحلون عائدين إلى بلادهم، وينفضّ السامر، وينضّم البيان الختامي إلى أمثاله من البيانات الختامية السابقة، وينسدل عليه ستار النسيان، كما انسدل على كل البيانات الختامية السابقة.

*****

عن الإجازات

أنا اشتكي أحياناً من أن حظي في الإجازات ليس دائماً رحيماً معي. كنت مثل غيري من الموظفين استمتع بإجازة سنوية، وخاصة في المدة اللاحقة لعهد الملك فيصل رحمه الله، أما في أثناء حكم الملك فيصل فلا أذكر أنني أخذت إجازة قط، فقد كان الملك آنذاك يدعو إلى التضامن الإسلامي مقابل الدعوة إلى الوحدة العربية التي كان يروج لها جمال عبدالناصر، التي لم تأت بالنتائج المرجوة سواء بمجهود عبدالناصر أو غيره من الزعماء العرب. كنا نستعيض نحن المرافقين من المراسم الملكية عن إجازاتنا بالوقت الذي نقضيه مع الملك فيصل أثناء إجازته السنوية في جنيف، لم تكن إجازة بالمعنى الصحيح، لكنها وقت راحة إلى حد كبير؛ إذ كنا نقطن في فندق الأنتركونتنتال لمدة شهر على الأقل على حساب الملك رحمه الله، وجنيف لمن لا يعرفها ليست المكان الأمثل لقضاء إجازة إلا إذا كان الإنسان مثل الملك فيصل يدخل الفندق في أول الإجازة، ولا يغادره إلا في نهايتها إلى المطار.

أخذت إجازة ذات مرة، وسافرت مع زوجتي إلى جنوب إفريقية. وصلنا إلى كيب تاون، وما مرّتْ إلا بضعة أيام حتى

جاءني تليفون يطلب مني العودة؛ لأن رئيس المراسم أصيب بمرض ولم يعد قادراً على القيام بالعمل. كانت المكالمة الهاتفية التي تلقيتها شديدة وعنيفة، وكأنني أنا الذي تسببت في مرض رئيس المراسم، وكأنني لم أستأذن وآخذ إجازة قانونية صحيحة مائة في المائة. المشكلة أنه قبل المحادثة الهاتفية الغاضبة حدث لزوجتي حادث جعلها لا تقوى على السير على قدميها ألبتة، كنا في صباح ذات يوم قد صعدنا بـ «التلي فريك» إلى جبل يسمونه جبل المائدة؛ لأن سطحه من أعلى مستوٍ إذا نظرت إليه من بعيد يبدو وكأنه سطح مائدة، سرنا في الجبل وتمتعنا بالمناظر الخلابة التي يشرف عليها، ثم نزلنا كما صعدنا بذلك المصعد المُعَلَّق. كنا في ذلك اليوم مدعوّين إلى الغداء عند رجل هندي مسلم، كان هو صاحب الشركة التي نسقنا رحلتنا معها. بعد الغداء أخذتنا سيارة إلى مركز للتسوق قريب من بيت الرجل. وما إن هبطنا من السيارة حتى أعلنت زوجتي فجاة أنها لا تستطيع السير على قدميها. هكذا فجأة لم تعد أم نزار تستطيع تحريك رجليها. عدتُ بها إلى الفندق، وجاءنا طبيب الفندق، وزرنا مركزاً صحياً صباح اليوم التالي، ولم يستطع أحد أن يشخّص طبيعة إصابتها المفاجئة. سلّمنا أمرنا لله، ولكن لأنه ليس من طبيعة زوجتي أن تستسلم لحادث طارئ مثل هذا فقد أعلنت لي أن برنامجنا سوف يستمرّ كما هو، وكل

الجديد في المسألة أنني أحضرت لها كرسياً متحركاً أضعها فيه، وأسير بها كما لو أنها تسير على قدميها، أصبحتُ أدور بها على المحلات التجارية هنا وهناك، وهي تصدر لي الأوامر بأن أتحرك في هذا الاتجاه أو ذاك. في البداية كنت أستطيع على الأقل أن أستريح في إحدى المقاهي المنتشرة في المراكز الشرائية، بينما هي تتجول في المتاجر كما تشاء، أما الآن فقد أصبح وجودي معها ضرورياً. واكتشفتُ أيضاً أن زوجتي رضيتْ بل ربما سعدت بهذا الترتيب الطارئ، وصارت تعطي لي الأوامر الصارمة: تقدمْ إلى هنا، اتّجه يميناً، ارجعْ قليلاً إلى الوراء، وهكذا. لم يزعجني شيء من ذلك، وما أزعجني هو المكالمة الهاتفية سالفة الذكر، كان عليّ أن أعود حالا، ألغيتُ كل ترتيبات الرحلة التي كنت أعددتها، وتمنيتُ على من هاتفني أن يفكّر مثلاً في إرسال طائرة تقلني مباشرة إلى المملكة، لكن محدّثي لم يترك لي فرصة لأكمل كلامي!. لم تكن هناك طائرة تقلني إلى الرياض، ولا حتى إلى جدة بل ركبت أول طائرة وجدتها إلى دبي، ومنها في اليوم التالي إلى جدة، ومن جدة عدت إلى الرياض. كانت الرحلة صعبة جداً ومرهقة، خاصة أن زوجتي لم يكن باستطاعتها أن تسير على قدميها، فكنا نصعد الطائرات بوساطة رافعات تقلّنا مرة من أرض المطار، وأخرى من فوق أحد مباني المطار، وهكذا. وأثناء العودة

الصعبة والإرهاق الذي قاسينا منه كنت أردّد بيتاً شعرياً لأبي الطيب المتنبي الشاعر العربي الفحل:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عفــة فَلِعِلَّة لا يظلـــم!

أحـيـاناً أفكّر أن الحـوادث الطارئه تنتظرني حـتى أبدأ إجازتي، ثم تحـدث وتفسـد علي الإجـازة. ففي المرات القليلة التي كنت أنتهـز فيها أجازة نهاية الأسبوع وأخطط لتمضية يوم أو يومين راحة في الرياض أو أحياناً خارجها، كانت في أغلب الأحيان تحصل ظروف عمل طارئه تضطرني للعودة السريعة من حيث أتيت.

فكرتُ ذات صـيف بعد أن حـصـلت على إجـازة رسـمـية أن أقضيها في رحلة بحرية من التي تعدها شركات بواخر كبيرة، تمخر خلالها البحار، وتقف في الموانئ المختلفة. سافرت مع زوجتي بعد أن حجزت مكاناً على إحدى هذه السفن العملاقة.

كـانت الرحلة تبـدأ من إسطنبـول في تركـيـا، ثم تقف في موانئ في اليونان وإيطاليـا وفـرنسـا، وتنتهي في إسبـانيـا. ودعوني أحكِ عما حدث في هذه الرحلة. كنا أربعة أشخاص أنا وزوجتي وصديقي أحمد جستنية وزوجته. سكنّا في أحد فنادق إسطنبـول، وذات يوم فكرنا أن نذهب بنزهة إلى إحـدى

ضواحي المدينة المشهورة بجمال طبيعتها، وروعة جبالها. ركبنا سيارة، وبينما نحن نعبر أحد شوارع المدينة حدث انفجار رهيب جعل سيارتنا تقفز من فوق الطريق. قيل فيما بعد إن انفجاراً حصل في مركز للشرطة عندما كنّا نمرّ أمام المبني. وصلنا جهتنا المقصودة، واسترحنا قليلاً في مكان عالٍ يشرف على وادٍ سحيق ومناظر طبيعية خلابة تنتهي أسفل الجبل بالبحر، عند العودة كنا قد استأجرنا عربتين «فيتون» من التي تجرها الخيول. في القدوم كان الأخ أحمد وزوجته في عربة، وكنت مع زوجتي في العربة الثانية. عند العودة اقترحت السيدتان أن تكونا في إحدى العربتين، ونحن نأخذ العربة الثانية. لم نكن نعرف أن عربتنا كان سائقها قد تركها لأمر ما، وأوكل للعودة بها صبياً لم يكن ذا دراية بالتعامل مع الخيول. كانت عربة الزوجتين أمامنا ونحن خلفها. وما إن سرنا قليلاً في طريق العودة والطريق من أحد جانبيه شديد الانحدار، وينتهي انحداره إلى البحر مباشرة كما ذكرت. كانت المنطقة كلها منطقة غابات، والجو غائم والمطر ينهمر بغزارة. وما إن أخذ الصبيّ مكانه في مقعد القيادة حتى جفل الحصانان وانطلقا كالريح، وكأنّ مَسّاً من الجن أصابهما. ما إن رأى الصبي ما حدث حتى قفز من العربة، وأطلق هو الآخر ساقيه للريح. وتركنا في العربة لمصيرنا!! طار الحصانان يجريان دون ضابط، وأخذنا أنا وأحمد نصيح، هو يقول: اقفز يا منصور،

وأنا أزعق: اقفز يا أحمد، ولم يجرؤ أحد منّا على القفز. اتجه الحصانان نحو الانحدار الذي ينتهي في البحر. لكن إرادة الله شاءت أن عموداً كهربائياً ضخماً بجانب الطريق جاء بين الحصانين الهائجين، مما جعلهما يسقطان أرضاً من شدة الصدام. كان الصدام من القوة بحيث جعل العمود بكل صلابته ينحني، عندها فقط استطعنا أنا وأحمد ترك العربة المحطّمة والحصانين اللذين سقطا على الأرض. وأنقذَنا الله من موت محقق.

أما الثالثة فقد كانت ثالثة الأثافي كما يقول التعبير المشهور. فقبل يوم واحد من إبحارنا في رحلتنا البحرية، حصل هجوم القاعدة المشهور بـ ٩ / ١١ على مركز التجارة العالمي في نيويورك. لم تلغ الرحلة بالكامل، ولكن بدل الوقوف في الموانئ المختلفة في الدول التي ذكرتها، أبحرتِ السفينة مباشرة إلى برشلونة في إسبانيا. أعجبني في إدارة الشركة أنهم قالوا للسياح إن الرحلة هذه كلها بهذا الشكل تعتبر ضيافة من الشركة لضيوفهم، وإن جميع مسافري الرحلة يحق لهم أن يتمتعوا برحلة أخرى مماثلة دون مقابل. وأعود الآن إلى ما بدأت به من صعوبة الحصول على إجازة. مضت سنة تلو السنة ولم أستطع بسبب ظروف العمل أن أستفيد من تلك الرحلة المجانية الممتازة!.

وكما أن بعض الإجازات تنقطع فجأة لأسباب تتعلق بظروف العمل، فإنه يحصل أحياناً أن تحدث مواقف صعبة

وغريبة أثناء الإجازات، دون أن يكون للعمل دور فيها. كنت ذات مرة مع أم نزار في القاهرة، واقترح عليّ صديق مصري أن أسافر للغردقة التي كانت لا تزال في أول عهد نموها ولم تكن قد ازدهرت بعد. حثني الصديق أن أذهب إلى واحدة من القرى الناشئة في المنطقة، التي تعيد الإنسان إلى عهد البساطة والحياة البعيدة عن هموم وعقد الحياة الحديثة. رحبت بالفكرة وأقنعت أم نزار بأننا جربنا الفنادق الفخمة، وشربنا من متع الحياة الحديثة، فلا بأس إذن من أن نعود لمدة بسيطة إلى الأيام القديمة، ونعيش الحياة كما كانت قبل أن تشوهها المخترعات الحديثة. وافقت أم نزار على الفكرة، ولكنّ قطعاً على مضض، فهي ليست مغرمة بالمغامرات وركوب المجهول. وكان يوماً سنذكره أنا وهي طيلة حياتنا.

كان وقت سفر الطائرة المصرية من القاهرة إلى الغردقة وقت الظهيرة، ولم يتسنّ لنا أن نتناول غداءً ممتازاً كانت أعدّته لنا خالتي «حماتي» رحمها الله، وغادرنا والجوع يقرص أمعاءنا. لم يكن على الطائرة أي طعام؛ لأن الرحلة قصيرة! وصلنا الغردقة، وتوجهنا إلى القرية المذكورة. وصلنا بعد المغرب، وكان نظام الإقامة في القرية يشبه نظام المعسكرات. وجبات الطعام محددة المواعيد بدقة، ونحن وصلنا بعد الانتهاء من العشاء الذي يتناولونه بعد المغرب مباشرة. كان الجوع قد

بلغ منا، وطلبنا بعض الطعام، وكان هناك شابان هما المسؤولان عن الإدارة. قالا: إن العشاء انتهى ولا يوجد أكل. شاهدت «فترينه» بها بعض قطع «الجاتوه» وقلت: أعطونا شيئاً منها، وكان جواب أحد الشابين أنه لا يمكن إعطاؤنا أي شيء. ولم ينفع رجائي معه، ولم ينفع أيضاً حثّ زميله له على إعطاءنا قطعة «جاتوه». لا حول ولا قوة إلا بالله. كان ذلك الشاب يعاملني وكأنني واحد من أعدى أعدائه! قلت: خذونا إذن إلى غرفتنا. أحضروا حماراً يجر عربة، ووضعنا شنطتنا في العربة، وسرنا وراء العربة والحمار. وسرنا.. وسرنا.. وسرنا! بدت المسافة وقد أرخى الليل سدوله، وعمّ الظلام بدت وكأنْ لا نهاية لها. وقفنا بضع دقائق للراحة، وخلعت أم نزار حذاءها؛ لأنه كان يغوص بقدمها في الرمال الناعمة! وبعد مسيرة مرهقة خلناها لن تنتهي وصلنا إلى غرفتنا. أسميها غرفة تجاوزاً فهي كانت عبارة عن شيء صغير محاط بثلاث جدران طينية والرابع يشكل الباب، وفتحة هي شباك يرتفع عن أرض الغرفة بمقدار قدمين، وبه باب خشبي دون زجاج طبعاً. كان بالغرفة أيضاً زير ماء كبير ومغراف للشرب. ثم حمام بدائي الشيء الوحيد الذي ينتمي إلى العصر الحديث بتلك الغرفة كان التليفون لحسن حظنا.

نسيت أن أذكر أن يوم وصولنا «المبارك» إلى القرية كان يوم بدء الألعاب الأولمبية التي كانت في ذلك العام تقام في كوريا. بعد أن عجزنا أن نأخذ من ذلك الشاب الأشم أي طعام، طلبنا منه أن يؤجّر لنا تلفزيوناً نشاهد فيه الألعاب، لعل المشاهدة تنسينا جوعنا ولو مؤقتا. وأيضاً رفض رفضاً باتاً متعللاً أن المخزن قد أقفل، مع العلم طبعاً أنه يوجد لديهم تلفزيونات لمن شاء أن يستأجر واحداً. كان مخي يغلي داخل جمجمتي؛ لأنني كنت أحرق خلاياه بالآلاف محاولاً التذكر إن كنت قد أسأت في يوم ما ولو بالصدفة لذلك الشاب، إلا أنني لم أتذكر أنني رأيته أو هو شافني قط. إذن لماذا كل تلك العداوة التي أبداها، وكيف للعاملين بالقرية أن يتركوا رجلاً مثل هذا في مكان سياحي مثل هذا يحتاج قطعاً إلى كل اللطف والرقة والمعاملة الحسنة الكريمة، حتى يستطيع أن يقنع أحداً بالإقامة في تلك القرية البدائية!..

لا غداء ولا عشاء ولا تلفزيون ولا مكان مريح، ومهما اختصرنا معنى الراحة. إذن كيف يمكن لنا الإقامة بذلك المكان؟! جلسنا لدقائق في تلك الغرفة، الليل شديد الظلام، والوحدة مخيفة إذ لا أحد حولنا، ولا نسمع إلا تكسر موج البحر على صخور الشاطئ. ولم تستطع أم نزار تحمل أكثر مما تحملتْ، فهي قد أنهكت في الطريق، والآن تعاني من الجوع

والخوف أيضاً في غرفة شديدة العري، يلفّها الظلام الدامس من الخارج، وتسيطر عليها وحشة مرعبة. حاولتُ دون أنْ أكون أنا مقتنعا بما أقول أنْ أهوّن على زوجتي، فقلت بنغمة لا تقنع أحداً: إن صديقنا القاهري يريد لنا أن نحيا بضعة أيام حياة طبيعية بسيطة خالية من متع الحياة التي ألفناها. لكنني فشلت بأن أحمّل لهجتي عامل الإقناع. أخيراً لما تكلمت أم نزار، وقد تهدج صوتها وكانت على وشك البكاء، قالت: ما هذا الذي جئت بنا إليه؟ أنا يستحيل أن أمضي الليل هنا. كلِّمْ الاستقبال وخلهم يرسلوا الحمار والعربة ونخرج من هذا المكان. وانصعت بلا جدال لأمرها، وطلبنا العربة والحمار، وحملنا شنطتنا وابتدأنا رحلة العودة إلى مكان الاستقبال. ولم تنسَ زوجتي أن تخلع نعليها وتحملهما بيدها، وكانت مسرورة بالخروج من ذلك المكان، ولم تعبأ بتعب الطريق الذي نقطعه مرة أخرى، حتى وإن كانت قدماها تغوصان في الرمل. لحسن الحظ كان أمام بوابة القرية تليفون، أسرعتُ إليه وتحدثتُ مع صديقنا القاهري، طالبا منه سرعة إيجاد فندق نذهب إليه. كان فندق شيراتون في ذلك الوقت هو الفندق الوحيد من الأسماء الكبيرة الموجودة على ما أظن في الغردقة. وأسرع الرجل، وهو صديقنا العزيز المهندس عصام عباس، وهو يقهقه بصوت عالٍ للحجز في الشيراتون. ولم تمضِ إلا دقائق حتى

أخبرنا أن غرفةً حجزتْ لنا بالشيراتون وأسرعنا إلى الفندق، ودخلنا غرفة كبيرة جميلة واسعة، ولأول مرة في ذلك اليوم العصيب ضاء وجه زوجتي بابتسامة عريضة، وأمرتُ خدمة الغرف بإرسال عشاء فاخر، تناولناه وقضينا إجازة من أجمل إجازاتنا خارج المملكة.

*****

obeikandl.com

obeikandl.com

حكايات

عندما ابتدأت العمل في الديوان الملكي مترجماً للملك فيصل، لم يكن لديّ في ذلك الوقت سيارة أصلاً، وكنت أستعير سيارة صغيرة من ابن عمي عبدالإله الخريجي، وأظنه أيضاً كان لا يملك غيرها. كانت سيارة «فيات» صغيرة صفراء، كالتي تستخدم للأجرة. كنت كلما وصلت بوابة الديوان، يوقفني جنود الحراسة، فأخبرهم أنني مترجم الملك، ويسمحون لي بالدخول. كانت الأحوال في ذلك الوقت سهلة ومُيَسَّرة، والأمن والأمان كانا سائدين. وتكرر دخولي إلى الديوان بالسيارة الصغيرة القديمة إياها. كان هناك عريف مُكَلَّف بالبوابة، ومعه جنود يتبادلون الحراسة معه. وصلت ذات مرة وكان العريف موجوداً، وقبل أن أنطق بقولي المكرر، قال بشيء من التهكم: تفضل، فأنت مترجم الملك، ثم أضاف: هل تعتقد أنني أصدقك أنك مترجم الملك، وأنت تأتينا بهذه السيارة المكسحة؟ وكدت أنا نفسي أقتنع بأنني لا يمكن أن أكون مترجماً للملك، وآتي للعمل بسيارة مثل تلك السيارة!..

كان الملك خالد رحمه الله ذات سنة في المنطقة الغربية، وحان وقت العودة إلى الرياض، وكالعادة أمر الملك أن تكون

العودة بالسيارات. كانت المحطة الأولى «المعشى» خارج مدينة الطائف، واختار الملك أن يبيت ليلته في المعشى.

وصلنا نحن الموظفين وكنت بمفردي في سيارتي. قصدت مع بعض الزملاء خيمة مخصصة لنا، وقد زُودتْ بسرر للنوم. بعد العشاء والسهرة، وكان الوقت قارب منتصف الليل، قرر الزملاء أن يبيتوا في المخيم، بينما اخترت أنا أن أواصل السفر. حاول الإخوان ثنيي عن ذلك، إلا أنني أصريت على مواصلة السفر. ركبت سيارتي، وما إن مضيت قليلاً حتى تذكرت حكاية كنت سمعتها من بعض الزملاء؛ الحكاية حقيقية كما أكد الإخوان، وهي تقول إن ثلاثة من موظفي الإعلام ممن كانوا منتدبين للعمل في الديوان الملكي، كانوا مسافرين من الرياض إلى جدة، اثنان في سيارة، والثالث بمفرده في سيارة ثانية؛ أرخى الليل سدوله، فقرر الاثنان اللذان يستقلان سيارة واحدة أن يمضيا باقي الليل في محطة صغيرة على الطريق، بينما أصرَّ الثالث على استئناف السير نحو جدة، يقول ذلك الشخص إنه بعد أن سار مسافة غير قصيرة، والليل أظلم، والطريق على مرمى البصر من الأمام والخلف خاويا، لا يوجد فيه بصيص نور. يقول أخونا، والكلام على ذمته، إنه شعر برعشة تسرى في جسده، وأراد أن يبددها، فأخذ يغني بصوت مرتجف قليلاً. غنّى مقطعاً من أغنية، ثم سكت. وما إن سكت حتى سمع شخصاً بجانبه يغني!!.

يقسم هذا الشخص، حسب الذين سمعوا منه الحكاية أن شخصاً بجانبه أخذ يردد الأغنية التي غناها. ثم يقسم ثانية إنه من شدة رعبه ارتفعت طاقيته فوق رأسه، بعد أن وقف شعره! لم يجرؤ على النظر إلى يمينه. كان ينظر أمامه وخلفه من المرآة، يتمنى على الأقل أن يشاهد نور سيارة خلفه أو قادمة نحوه، إلا أن الطريق بقي خالياً تماماً والظلام الدامس يلفّه. لا أذكر بعد ذلك ماذا حدث، وكيف تخلص أخونا من مصيبته. إنما الذي أذكره جيداً أنني ما إن تركت المخيم في الطائف واستقبلت الطريق المؤدي إلى الرياض حتى تذكرت القصة. لم يقف شعر رأسي عند التذكر، إلا أنني ندمت على ترك المخيم والزملاء. لم يعد من الممكن العودة؛ إذ ماذا سيقول الناس عني. ضحكت من نفسي على سخف الحكاية كلها، واستأنفت السفر. أخرجت شريطاً لأم كلثوم، وبدأت أستمع إلى الأغنية. أعترف أنني كنت متوتراً، أتلفّتُ يميني في السيارة وإلى الخلف في المرآة؛ لأرى إن (طبّ) عليّ زائرٌ فجأة! وفي الوقت نفسه أضحك بعصبية على سخافتي. مكثت أستمع إلى أم كلثوم إلى أن انتهى الشريط. بعد انتهاء الشريط جاءني صوتٌ صفير. يا للمصيبة!! من هذا! سألت هامساً؛ وقف الشريط ووقف الصفير بعد أن انتهت الأغنية. استعذت للمرة الألف من الشيطان الرجيم، وأعدت الشريط إلى الوراء قليلاً،

ثم أدرته، وفي هذه المرة وجدت أن الشريط عندما ينتهي يظهر صوت آلة موسيقية، نغمتها تشبه الصفير. وحمدت الله أنه لم يكن معي مرافق في السيارة.

نحن في المراسم الملكية وأغلب العاملين في الديوان الملكي نحرص دائماً على الظهور بمظهر رسمي، يعني: المشلح شيء أساسي لعملنا. الآن بعد أن تقاعدتُ وقلّتِ المناسبات التي أحتاج فيها إلى المشلح أفتح الدولاب بين فينة وأخرى، وألقي نظرة على مشالحي التي أحيلت مثلي للتقاعد، والتي يُخيّل إليّ أنها تطأطئ رأسها ربما حزناً على المجد الغابر!. ومن عادة ملوكنا وأمرائنا الكبار - رحم الله من صار منهم بجوار ربه، وأطال الله في أعمار الأحياء - من عادتهم أن يجلسوا إلى مكاتبهم بمشالحهم. أما نحن الموظفين فإن ارتداء المشلح هو من الأساسيات طالما كنا في ميدان العمل. أذكر مرة حينما زارنا السيد سبيرو أجنيو - وقد كان نائب الرئيس الأمريكي نكسون - أنّ برنامجه اشتمل على زيارة له إلى استراحة في أبحر الشمالية في جدة. كان الوقت عصراً والجو لطيفاً، وذهبنا، وكان أمير منطقة مكة المكرمة يومئذ سمو الأمير فواز ابن عبدالعزيز. طبعاً كان الجميع متمشلحين، ووصل السيد نائب الرئيس وإذا هو يلبس قميصاً (سبور) نصفَ كُمٍّ وبنطالاً بسيطاً، وأسرعنا كلنا عندما رأيناه إلى خلع مشالحنا لنجاري الجو المتحرر من الرسميات.

أحب أن أتوقف قليلاً هنا عند السيد أجنيو. عندما جاءنا في تلك الزيارة الرسمية، كان نائباً لرئيس أمريكا السيد ريتشارد نكسون، وجاء بكل العظمة والأبهة التي يحب الأمريكان أن يحيطوا أنفسهم بها أمام الآخرين. جاء معه جيش من رجال الأمن والحراسة، ورجال الاتصالات، وأطنان من أجهزة الاتصالات، ومرافقون وغيرهم. ومما أثار الخلافات بيننا وبين الجانب الأمريكي هو إصرارهم على أن يحضر معه أيضاً سيارات مصفحة يتنقل بها في بلدنا، كان ذلك شيئاً رفضناه بتوجيهات من رؤسائنا، وأصررنا أننا نملك من وسائل الحماية في بلدنا ما يضمن سلامة السيد أجنيو، وهكذا كان.

أزيد شيئاً عن حكاية السيد أجنيو هذا. هو ينحدر من عائلة يونانية، وكما هو معلوم أو غير معلوم فإن الأمريكان الذين ينحدرون من عروق أنجلوسكسونية هم أصحاب الحظوة، ويعملون على بقاء المناصب الرئيسة في أيديهم. وكما نعرف جميعاً فإن فضيحة ووترجيت تفجرت في عهد الولاية الثانية لنكسون، وملخصها أنه أرسل أناساً من قبله يتجسسون على أسرار الحزب الجمهوري في مكاتبهم التي كانت في منطقة اسمها ووترجيت. وعندما أدرك كبار رجال الحزب الديموقراطي أن نيسكون سيسقط على إثر الفضيحة، وجدوا أنه لا يليق بالتراث الأنجلوساكسوني وبعراقة المهاجرين الأُوَل

إلى العالم الجديد، لا يليق بهم أن يرأسهم رجل يوناني، وعليه طلعوا لأجنيو المسكين بعد نبش سجلاته الجديدة والقديمة بقصة تهرُّبِه من الضرائب في وقت ما من حياته الوظيفية. ولم يجد نائب الرئيس من يقف بجانبه، وسقط قبل نكسون. وجاؤوا بجيرالد فورد الذي يُذكر عنه فقط أنه الرئيس الأكثر سقوطاً بين الرؤساء الأمريكيين، وهنا أستخدم كلمة سقوط بمعناها الحرفي؛ فهو لم يكن يصعد سلم طائرة أو ينزل من درج إلا ويسقط قبل أن يصل الأرض. أكتب هذا الكلام والرئيس السابق فورد لا يزال على قيد الحياة وعمره اثنان وتسعون عاماً، وهو بذلك أصبح أكبر الرؤساء الأمريكيين سناً[1].

أما أجنيو هذا فقد أصبح المسكين عبرة لمن يعتبر. فبعد تلك الزيارة الرسمية وما صاحبها من خيلاء القوة، وعنجهية السلطة، بعد كل هذا زارنا الرجل بعد مدة بسيطة، ليس كشخص رسمي بعد أن فقد منصبه، ولكن كممثل لبعض الشركات الأمريكية، يبحث لدينا عن بعض المشاريع التجارية. وبدلاً من أن كنا نتسابق بين يديه لخدمته عندما كان في منصبه الكبير، أصبح الآن ينتظر عند أبواب بعض الموظفين إلى أن يُسمح له بالدخول. وهذه عبرة لمن يريد أن يعتبر. ولا أقول هذا من أي شماتة - معاذ الله - ولكنها سُنَّة الحياة، وإن كل شيء إلى زوال ما عدا وجه الله.

*****

(١) لقد توفي الرئيس فورد منذ بضعة أشهر.

إن أهم ما يحتاجه موظف المراسم في أي مكان في العالم إضافة إلى المؤهلات المطلوبة هو أن يكون سريع البديهة. إن سرعة البديهة هذه يجب أن تكون أهم ما يتحلى به من يعمل مع قادة البلاد؛ لأن المواقف الصعبة التي تحصل تكون عادة بحضور رئيس الدولة، أو رئيس الدولة وضيوفه الذين من مستواه. لأضرب مثلاً على ميزة سرعة التصرف في المواقف المحرجة. زارنا صدام حسين ذات مرة، وبالمناسبة عندما يزور صدام حسين أي بلد فإنه يصحب معه فقط مجموعة حرسه الخاص، الذين ينزلون من الطائرة قبل نزوله، ويحيطون بها بشنطهم الصغيرة، التي تحتوى على رشاشات جاهزة للعمل. أول شيء عمله حرسه عندما صعدت الطائرة لاستقباله كان أن فتشوني بحركة سريعة، فهم أدخلوا أيديهم يتحسسون جسدي من تحت مشلحي. كان ذلك سهلاً، ومشى الحال. لكن الحكاية التي تطلبت سرعة البديهة، هي عندما جاء الملك فهد رحمه الله وكان وقتها ولياً للعهد ليصحبه إلى المطار لتوديعه بعد انتهاء الزيارة، عندما وصل الملك جلس في الصالون الرسمي الموجود في قصر الضيافة، وكنا وقتئذ في جدة. نزل بعد ذلك صدام من جناحه ودخل إلى الصالون حيث كان ينتظره الملك. حسب العرف ينتظر الاثنان لبضع دقائق يقدم لهما أثناءها فنجان قهوة حتى يتمكن بقية أعضاء الوفد والمرافقين من ركوب سياراتهم استعداداً للانطلاق إلى المطار.

جاء رجلان من مقدّمي القهوة إلى باب الصالون؛ وحسب قواعد البروتوكول يقوم شخصان بصب القهوة للضيف والمضيف في الوقت نفسه. كنت واقفاً بالباب، وبجانبي وقف رئيس حرس صدام. فوجئت به عندما وصل القهوجيان يوقفهما، وذلك بسد الباب بجسمه. وعندما أبديت دهشتي من تصرفه هذا قال إن رئيسه يشرب من الدلة نفسها التي يشرب منها ملكنا!.. هكذا قالها. أجبته بأن الأصول تقضي أن يشرب الاثنان من دلتين مختلفتين وفي الوقت نفسه. إلا أنه أصر على موقفه. كل ذلك وولي العهد والرئيس جالسان في صدر المكان، وينتظران وصول القهوة. وعاد الحارس يسأل أي الدلتين تلك التي يشرب منها ملكنا أشرت إلى أحد الرجلين، وقلت هذا الذي يصب القهوة لملكنا. قال إذن يدخل هو فقط. قلت لا بأس. ودفعت بالرجل الذي أشرت إليه. وما إن مشى خطوة واحدة حتى دفعت بالثاني وقلت: «أسرع معه». وهكذا قدَّم الرجلان القهوة في الوقت نفسه لولي العهد والضيف.

زارنا ذات مرة الرئيس الفلبيني الراحل جوزيف ماركوس، ومعه زوجته أميلدا. جاءا في طائرتين كبيرتين، وكانت تلك زيارة رسمية للمملكة. كان ذلك في عهد الملك خالد رحمه الله، وكانت الحكومة في ذلك الوقت في الرياض. بعد انتهاء الزيارة الرسمية، رغب ماركوس وزوجته في الذهاب إلى جدة، ورحَّبَتْ

السلطة بذلك. قبل سفرهما دعاني الملك فهد رحمه الله، وأمرني أن أرافقهما إلى جدة وأن أبقي عينيّ مفتوحتين وأتأكد أن الأمور كلها تسير بالطريق الصحيح إلى أن يغادر الرئيس وزوجته المملكة. أحبّ أن أضيف هنا أن إجراءً كهذا لم يكن روتينياً؛ أي إنه في العادة إذا انتقل الضيف من مكان إلى آخر يرافقه الوزير الذي يكون عادة على رأس قائمة الشرف «الوزير المرافق» بالمعنى المستخدم؛ ويرافقه كذلك أمناء من المراسم الملكية، وضباط من الحرس الملكي، وأيضاً أفراد من الجهات الأمنية الأخرى. إلا أنه في هذه المرة طلب مني سمو ولي العهد أن أكون ضمن الأشخاص المرافقين، وحرّصني كما ذكرت أن أضمن ضبط الأمور. وصلنا جدة، وتوجهنا إلى قصر الضيافة، وكان الوقت بعد العصر، وهناك بعد أن تأكدت أن كل شيء كان على ما يرام توجهت إلى الفندق؛ لآخذ قسطاً من الراحة. وصلت الفندق، وصعدت إلى غرفتي، وأنا سعيد بساعات الراحة التي سأستمتع بها، لكنني ما كدت أرفع المشلح من فوق ظهري حتى رن التليفون. رفعت السماعة وإذا الأخ محمد ناظر، مدير مكتب المراسم بجدة يصرخ طالباً مني العودة حالاً إلى قصر الضيافة. أسرعت طبعاً بالعودة، وقابلني محمد، وكانت تبدو عليه علامات القلق الواضح قال: «الْحقْ يا أستاذ، هذي تبغى تخرج» قلت: مَن هذه؟ قال: السيدة إيميلدا

تريد الخروج الآن. كان الوقت آنذاك حول المغرب. وأضاف محمد: «لقد أقنعتها بالانتظار قليلاً، وهي الآن في غرفتها جاهزة للخروج». طرقت باب غرفة السيدة، ودخلت لأجدها بكامل شياكتها وأناقتها، ولكنّ علامات الضيق واضحة على محياها. ألقيتُ تحية رقيقة، ولم أجلس، وسألتها عن وجهتها في الخروج، والغرض منه في ذلك الوقت المبكر من المساء. قالت إنها مدعوة من قبل أصدقاء وتريد أن تذهب إليهم. كانت تجلس على السرير، قلت لها: «يا سيدتي يسعدنا جميعاً أن لك أصدقاء في بلدنا، ويسعدنا أنك مدعوة من قبلهم. لكنّ هناك شيئاً فات أصدقاءك أن يضعوه في حسبانهم (لا يمكن طبعاً أن أقول لها: إنها هي الملامة بكل الأحوال) وهذا الشيء الذي لم يأخذه أصدقاؤك في الحسبان هو أنهم لم يخطرونا قبل وصولكم إلى المملكة حتى نضعه في برنامج زيارتكم، أنت تدركين أن هذه زيارة رسمية، ونحن نعاملك فيها كما نعامل زوجك فخامة الرئيس؛ أي ضيفة رسمية على المملكة. وكما تعرفين إنه في مثل هذه الزيارات، يدرس برنامج الزيارة بدقة، ويؤخذ كل شيء في الحسبان. يعني نحن نعمل (بروفات) لكل مكان يتجه إليه الضيوف، ونرسل فرقاً أمنية ومروراً وغيره إلى الأماكن المشمولة بالزيارة، ولا نترك شيئاً للصدفة. ثم إننا نعرض كل صغيرة وكبيرة في برامج الزيارات الرسمية على

رؤسائنا، وهم الذين لهم الكلمة الأخيرة في الموافقة أو التعديل أو الرفض. وعليه فأنت كزائرة كبيرة، ولك المعاملة نفسها التي نعامل بها زوجك، نحرص عليك وعلى سلامتك، ولا نستطيع أن نوافق على أي تحرك لك يأتي هكذا فجأة». لم يعجبها كلامي طبعاً، وردت قائلة: «إن الناس الذين أنوي زيارتهم أصدقائي، ولا يحتاج ذلك إلى أي إجراءات رسمية، ولا إلى موكب أو غيره، فأنا مدعوة بصفة خاصة». أجبتها: «ولكنك ضيفة، ولست شخصية خاصة، بل أنت ضيفة البلاد، وفي ضيافة ملكها وحكومته. ولا نستطيع، ولا يجوز أن تتحركي خارج البرنامج المعد سلفاً. وكان يسعدنا لو عرفنا مسبقاً بدعوتك هذه أن ندرجها في البرنامج، ولكن الآن أصبح من الصعب جداً أن نخرج عن البرنامج المرسوم». وهكذا جلستُ لمدة ليست قصيرة في أخذ وردّ مع السيدة ماركوس إلى أن اقتنعتْ أو أدركتْ أنه لا فائدة من إصرارها على الخروج. عندما هممتُ بالخروج صافحتها، وفوجئتْ بيدي التي كانت مثل قطعة من الثلج تلسع يدها، صاحت قائلة: «أوه يدك باردة جداً» وأجبت: «الفضل يرجع لك». فضحكتْ وودعتُها وخرجت. قيل لي فيما بعد إنها استلقتْ على سريرها، وأخذتْ تضرب السرير بيديها ورجليها، وتبكي بهستيرية. أدركت وأنا بطريقي مرة ثانية إلى الفندق لماذا طلب مني الملك فهد أن أرافق السيد ماركوس وزوجته.

زارنا ذات مرة العقيد القذافي، وكان ذلك قبل أن يُضْرَب عليه الحصار، ويصير تنقله بالسيارات والخيام التي كانت في البداية ترفاً، ثم أصبحت ضرورة بسبب المقاطعة. وصل العقيد إلى الرياض وقامت الدولة ممثلة بالملك خالد وولي العهد الأمير فهد، يرحمهما الله تعالى، بواجب الاستقبال والضيافة اللائقة. وبعد انتهاء الزيارة في الرياض دعاني سمو ولي العهد وأمرني أن أكون ضمن بعثة الشرف المرافقة للعقيد عند مغادرته الرياض إلى المنطقة الغربية. كان رئيس بعثة الشرف هو معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر، وكان سفيرنا في ليبيا في ذلك الوقت هو الأستاذ عبدالله الفضل رحمه الله. ومرة أخرى طلب مني أن أحرص على ضبط الأمور، وصلنا جدة، ومنها مباشرة إلى مكة المكرمة لزيارة الحرم المكي الشريف، دخلنا الحرم من باب الملك عبدالعزيز، وأنا حريص طوال الوقت أن أسير بجانب الرئيس أو قريباً منه. ما إن أصبح العقيد داخل الحرم حتى طلب من رجاله أن يهتفوا للفاتح من سبتمبر. وقبل أن يفتح أحد فمه قلت له: إننا في الحرم المكي الشريف يا فخامة الرئيس، وما يقال هنا هو ذكر الله، وقراءة آيات القرآن التي تعظّم البيت الحرام. نظر إليّ، ولم يقل شيئاً، ومن ناحيتي أنا نظرت إلى مرافقيه لأدعم ما قلت للعقيد. سارت الأمور على ما يرام، ولم يحدث شيء خارج عن المألوف

إلى أن وصلنا المدينة المنورة، وذهبنا للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وللصلاة في مسجده.

توجهنا إلى الروضة، وصلى كل واحد من الموجودين ما تيسّر له أن يصلي. كنت حريصاً كما ذكرت أن أكون دوماً على مقربة من الرئيس، كان بيني وبينه سفيره في المملكة. بعد الصلاة التفتَ إلى سفيره، وطلب منه أن يدخلوا آلات التصوير معه حينما يدخل إلى الحجرة النبوية الشريفة حيث يرقد عليه الصلاة والسلام في قبره الشريف، يحفُّ به صاحباه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. دخول كبار ضيوف المملكة إلى الحجرة النبوية الشريفة لا يتم إلا بأمر من المقام السامي، وكان الأمر قد أُعطي للعقيد لدخول الحجرة. إلا أن الأمر لم يشمل، ولا يمكن أن يشمل دخول (كميرات) التصوير إلى الحجرة الشريفة. لا بأس أن يصور الناس وهم في الحرمين الشريفين، لكن دخول (كميرات) التصوير إلى الحجرة النبوية يبعث لدى كل مسلم حق قشعريرة وغيرة على دينه ونبيه. وعندما أمرني ولي العهد أن أرافق القذافي لم يُملِ عليَّ تفاصيل ما يجب عليَّ أن أفعله، بل فقط للتأكد من سير الأمور في الطريق الصحيح. وكما ذكرت لا يحتاج المرء أن يكون فقيهاً في الدين ليدرك أن الهتاف لغير الله في الحرم المكي الشريف، وإدخال آلات تصوير إلى الحجرة النبوية أمور لا تقبل بها فطرة المسلم السويّ.

لهذا عندما أمر القذافي سفيره أن يدخل آلات التصوير إلى الحجرة لتصويره هناك، انبريتُ له مرة ثانية وقلت له مباشرة: إنه لا يصح أن ندخل آلات تصوير إلى ضريح المصطفى صلى الله عليه وسلم. ردّ علي القذافي قائلاً: ولكن رجال الدين سمحوا بذلك، وأشار إلى رجل يقف أمامنا أظنه كان أحد أعضاء هيئة الإشراف على الحرم. أجبته بأنه لا أحد يملك هذه الصلاحية إلا الملك، وهو لم يصدر لنا أمراً بإدخال آلات التصوير إلى داخل الحجرة النبوية. صمت الرئيس، ولم يقل شيئاً. ولأتأكد من عدم إدخال أي آلات تصوير إلى داخل الحجرة، ناديت رئيس مجموعة الحراسة المكلفة بالرئيس من الحرس الملكي، وأخبرته بما جرى بيني وبين الرئيس، ونبهته أن يكون شديد الحرص، وأن يمنع إدخال أي آلة تصوير إلى الحجرة. إلا أن الشك بقي يخالجني مخافة أن تفلت آلة تصوير بيد أحد الداخلين، ولهذا فقد وقفتُ بنفسي أيضاً على باب الحجرة أساعد رجال الحرس الملكي، ولا أظنهم كانوا بحاجة إلى مساعدتي؛ فهم شباب أكْفاء يؤدّون واجباتهم بكفاءة ومقدرة.

*****

كبار.. وكبار

لما تحدثت في شيء من السلبية عن تصرفات بعض كبار الزوار الذين كان لي نصيب من التعامل معهم، فإنني في الجانب الآخر أحب أن أؤكد أن معظم كبار الزوار يتحلون بأخلاق عالية، تناسب قاماتهم. هناك إنسان واحد أحب أن أذكره؛ لأنه كان فعلاً كبيراً وعظيماً في مركزه وأخلاقة النبيلة، إنه المرحوم الشيخ عيسى بن حمد آل خليفة أمير البحرين الراحل. هذا الرجل كان فعلاً إنساناً نبيلاً بكلّ معاني الكلمة. كان رحمه الله جمّ التواضع غير المُتَصَنَّع، تواضع الرجل الكبير الذي لم يُنسه مركزه كحاكم لبلد فطرتَه الرحيمة وإنسانيتَه الصادقة وحبَّه للجميع. كان عند وصوله إلى المملكة في كل زياراته لا يسلم فقط على الملك وكبار المستقبلين بل يسلم بحرارة وود على الجميع.. كان رحمه الله إذا ما رآني في استقبال أو مناسبة يدعوني لزيارة البحرين. وقد تشرفت بزيارة الشيخ عيسى في البحرين أكثر من مرة. كانت جلسته عادة في الصباح الباكر. يجلس في صدر المجلس، لكنه لم يكن يرى أي غضاضة في أن يرافق زائريه عند مغادرتهم مجلسه، ومهما كانت مواقعهم الوظيفية أو الاجتماعية يرافقهم إلى الباب.

زرت البحرين ذات مرة. بدعوة كريمة من سمو الشيخ. وصلت في المساء، وكان الدكتور الصديق غازي القصيبي في ذلك الوقت سفير المملكة في البحرين. سهرنا طبعاً عند معالي السفير، وتأخرت في السهر إلى الساعات الأولى من الصباح، وكيف لا تتأخر والمساجلات الشعرية في تلك الليلة كانت حامية بين المضيف والأستاذ الشاعر عبدالرحمن رفيع!

كان موعدي للسلام على الشيخ عيسى في الصباح الباكر من اليوم التالي، كان من ضمن الحضور طبعاً صديقنا الأستاذ نبيل قنبر، وهو رئيس المراسم آنذاك في وزارة الخارجية، والمسؤول عن مراسم الشيخ عيسى أيضاً. (أصبح الأخ نبيل بعد تولي جلالة الملك حمد عرش البحرين رئيساً للمراسم في الديوان الملكي نفسه). عدت بعد السهرة إلى الفندق، وأذكر أنني صممت أن أبقى مستيقظاً إلى وقت مقابلة سمو الشيخ عيسى التي كان مقرراً لها أن تكون في الساعة السابعة، وهو الوقت الذي كان سموه يجلس فيه لاستقبال الناس.

أنا كافحت النوم، لكنّ يظهر أن الأخ نبيل وجد صعوبة في التغلب على نعاسه، واستسلم لدقائق قليلة لسلطان النوم، نزلت إلى بهو الفندق أنتظر نبيل، وكل ربع دقيقة أنظر إلى ساعتي لأرى كم من الوقت بقي لنا للمقابلة، كدت أيأس لولا أنني لمحت

نبـيل يقف في سـيـارته أمـام باب الفندق حـيث كـان نظري مصوباً. أسرعت إلى السيارة، لكني فوجئت بمنظر لا يمكن أن يتـورط به إلا رجل المراسم. كـان على نبـيل أن يوصلني في الوقت المحدد، ولهذا فوجئت به في السيارة، وهو أيضاً يقودها بنفسه، فوجئت به يلبس قميصه في أول إشارة مرور، وفي الثانية وضع ربطة العنق، وفي الإشارة التالية قبل الوصول إلى القصر لبس جواربه واحتذى جزمته! ولما ترجلنا من السيارة كان نبيل قد أصبح في كامل قيافته، قيافة رجل المراسم الذي يجب أن يكون دائماً مثل الرجل العسكري المنضبط.

*****

obeikandl.com